
روايات مصرية للجيب
رجل المستحيل
عقارب الساعة
105
د. نبيل فاروق
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

رجل المستحيل

(أدهم صبرى) .. ضابط مخابرات مصرى، يرمز إليه بالرمز (ن-١) .. حرف (النون)، يعنى أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص.. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لستّ لغات حيّة، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكّر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعدّدة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات.. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١- انفجار ..

اعتدل حارسا البوّابة الرئيسية لمبنى المخابرات العامة المصرية، فى احترام تام، وهما يستقبلان سيارة سوداء كبيرة، توقّفت لحظة أمام حاجز البوّابة، ليدسّ سائقها بطاقة مغنطيسية رقيقة، داخل تجويف إليكترونى خاص، تألّق فى أعلاه مصباح أحمر صغير، قبل أن يرتفع الحاجز فى بطء، وينخفض حاجز آخر يليه، ليتساوى بأرضية المدخل، فانطلقت السيارة تعبر المدخل، وتدلف إلى ساحة المبنى الكبيرة، وتعبرها إلى ساحة أخرى واسعة، قبل أن تتوقّف أمام المبنى الرئيسى، المحاط بعدد من المبانى المرتفعة، التى تحجبه تمامًا عن أنظار الجميع، ويهبط سائقها بسرعة، ليفتح بابها الخلفى فى احترام شديد، وهو يقول:

- وصلنا يا سيادة المدير.

هبط مدير المخابرات المصرية من السيارة، وألقى نظرة على ساعة يده التى تشير عقاربها إلى الحادية عشرة والربع مساءً، قبل أن يتجه إلى المبنى،

ويستقلّ المصعد إلى الطابق الذى يحوى مكتبه ، حيث استقبله مدير المكتب ، قائلا :

ـ مرحبًا يا سيادة المدير ، يسعدنى أنك وصلت بهذه السرعة ، فهناك برقية عاجلة ، لابد أن تطالعها بنفسك .

سأله المدير فى اهتمام ، وهو يدلف إلى مكتبه :

ـ من (سويسرا) ؟

هزّ الرجل رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

ـ بل من الولايات المتحدة الأمريكية .

توقّف المدير بغتة ، قبل أن يجلس خلف مكتبه ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يكرّر فى قلق :

ـ من (أمريكا) ؟!

ناوله مدير مكتبه البرقية ، قائلاً :

ـ نعم يا سيّدى .. إنها بخصوص الرائد (منى توفيق) .

التقط المدير البرقية ، وطالعها فى اهتمام ، ثم ازداد انعقاد حاجبيه أكثر ، وهو يقول :

ـ اتصل بـ (قدرى) ، واطلب منه أن يأتى إلى مكتبى على الفور .

أومأ الرجل برأسه ، قائلاً :

ـ على الفور يا سيادة المدير .

وغادر المكان فى سرعة ، ليجرى اتصاله بـ (قدرى) ، فى حين ألقى مدير المخابرات نظرة أخرى على البرقية ، قبل أن يتمتم :

ـ ترى كيف يكون رد فعل (أدهم) ، لو طالع هذه البرقية ؟!

وتنهّد فى عمق ، وهو يتجه إلى نافذة حجرة مكتبه ، ويتطلّع عبرها فى صمت ، وهو يعقد كفيه خلف ظهره ..

وراح عقله يستعرض الأحداث السابقة القريبة ، التى أدّت إلى سفر (أدهم) إلى (سويسرا) ، ودخوله فى صراع عنيف مع أقوى جهازى مخابرات فى العالم ..

الـ (سى.آى.إيه)(*) ، والـ (كى.جى.بى)(**) ..

لقد بدأ الأمر كله فى قلب (موسكو) ، عندما اجتمع قادة تنظيم شيوعى سرى ، بقيادة نائب رئيس المخابرات الروسى (زورين) ؛ لوضع خطة انقلاب ، يستهدفون به إعادة الشيوعية إلى البلاد ، واستعادة المجد العسكرى للاتحاد السوفيتى السابق ..

(*) (سى.آى.إيه) : (C I A) : المخابرات المركزية الأمريكية .
(**) (كى.جى.بى) : (K G B) : المخابرات الروسية (السوفيتية)

ثم كشف الحاضرون بغتة ، أن أحدهم سجَّل خطتهم كلها على أسطوانة كمبيوتر مدمجة ، عبر أسلاك سرية خفية ..

وعلى الرغم من أن (بوريس) ، الذراع اليمنى لـ (زورين) ، قد نجح فى اللحاق بالرجل ، والتخلص منه ، قبل أن ينجح فى الهرب ، إلا أنه كشف أن الرجل قد أرسل محتويات الأسطوانة المدمجة عبر الهاتف ، إلى كمبيوتر آخر فى (برن) ، عاصمة (سويسرا) ..

ولكن الأكثر خطورة ، أن ذلك الرجل ينتمى إلى منظمة جاسوسية خاصة ، لم تفصح عن نفسها بعد ، ولكنها عرضت الخطة كلها للبيع ، لمن يدفع أكثر ..

ولأن إحدى خطوات الخطة ، كانت تحتم ضرب (مصر) بالصواريخ ، ذات الرءوس النووية ، كان من الضرورى أن تهتم المخابرات المصرية بالأمر ..

وأن ترسل أفضل رجالها للتعامل معه ..

وكلمة أفضل رجالها هذه تعنى شخصًا واحدًا بلا جدال .

(أدهم صبرى) ..

رجل المستحيل ..

وسافر (أدهم) إلى (برن) ، وهو يحمل تعليمات محدودة ..

من الضرورى أن يبذل قصارى جهده للحصول على الأسطوانة المدمجة ، ومنع الأمريكيين من الحصول عليها فى الوقت ذاته ..

وفى (برن) ، كانت هناك مفاجأة فى انتظار (أدهم) ..

إنه سيعمل بصحبة زميل ..

أو على وجه الدقة .. زميلة ..

(جيهان فريد) ، فتاة مخابرات مصرية من الطراز الأوَّل ، تلقت تدريبات خاصة ومكثفة ، جعلتها واحدة من أفضل فتيات المخابرات فى العالم ..

وعلى الرغم من أن هذا لم يرق كثيرًا لـ (أدهم) ، إلا أنه بدأ المهمة مع زميلته الجديدة ، محاولاً تحقيق النجاح بقدر الإمكان ..

ولكن المعركة كانت عنيفة بحق ..

لقد أرسل الروس فريقًا من أقوى رجالهم ، برياسة واحد من أقوى وألدّ أعداء (أدهم صبرى) ..

(سيرجى كوربوف)..

الكوبرا ..

وبين الفرق الثلاثة ، المصرى ، والأمريكى ، والروسى ، بدأ الصراع عنيفا ، قاسيا ، اشتعلت فيه

النيران متأججة ، وسط ثلوج (سويسرا) ..

كان مدير المخابرات العامة يسترجع هذه التفاصيل ، بناءً على ما وصله من أخبار ومعلومات ، ولكنه لم يكن يدرى ، أنه فى هذه اللحظة بالتحديد ، وبينما يقف فى انتظار وصول (قدرى) ، كان (أدهم) و (جيهان) يواجهان فريقًا من المحترفين الأمريكيين ، داخل مطعم صغير ، وسط الثلوج ، على أطراف (جنيف) ..

وكان اثنان من هؤلاء المحترفين قد صوّبا مدفعين صاروخيين إلى المطعم ، الذى يحتمى به (أدهم) و (جيهان) ، وزعيمهما يشير فى حزم ..

ومع إشارته ، انطلق الصاروخان نحو المطعم ، و ..

وكان الانفجار هائلا(*) ..

* * *

انقبضت أصابع الجنرال (تورنسول) ، فى انفعال جارف ، حتى كادت تعتصر سمّاعة الهاتف ، وهو يصرخ بصوت ارتجف له جسده كله :

ـ نسفتموه !.. أأنت واثق يا رجل ؟

(*) لقراءة التفاصيل كاملة ، راجع الجزء الأول (الإعصار الأحمر) .. المغامرة رقم (١٠٤)

استرخى زعيم فريق المحترفين ، فى مقعد سيارته الكبيرة ، وهو يبتسم فى ظفر ، وعيناه تطالعان ذلك المطعم الصغير ، الذى أحاله الصاروخان إلى كومة من الحطام والرماد ، وأجاب :

ـ بلا ذرة واحدة من الشك يا جنرال .. ذلك المطعم محاط بفراغ كبير ، ولقد نسفه صاروخانا نسفًا ، وسحقاه سحقًا أمام أعيننا ، وحتى لو كان ذلك الرجل ساحرًا ، ونجح فى تحويل نفسه ورفيقته إلى فأرين ، لن يمكنهما الفرار من المكان ، دون أن نتنبه لهما ، ونراهما فى وضوح .

والتقط نفسًا عميقًا ظافرًا ، وهو يلقى نظرة أخرى على حطام المطعم ، الذى أحاط به رجاله الأربعة ، وراحوا يفحصونه فى حذر متوتر ، ثم قال :

ـ صدقنى يا جنرال .. لم تكن لديهما فرصة واحدة للفرار .

قهقه الجنرال (تورنسول) فى ارتياح ، يفوح برائحة النصر ، وهو يقول :

ـ عظيم .. رائع .. لقد حققتم انتصارًا جديدًا يا رجال .

تنهّد زعيم المحترفين فى قوة ، قائلاً :

ـ ولكنه احتاج إلى ثمن فادح يا جنرال .. لقد فقدنا نصف القوة ؛ للقضاء على رجل واحد ، وهذه أبشع نسبة خسائر عرفناها ، طوال عملنا كله .

أجابه (تورنسول) فى صرامة :

ـ الرجل كان محترفًا .

قال الزعيم فى غضب :

ـ لم يكن محترفًا عاديًا يا جنرال ، وكان من المفروض أن تنبهنا إلى هذا ، حتى يمكننا التعامل معه كما ينبغى .

صمت (تورنسول) لحظة ، ثم قال فى حدة :

ـ لا تفسد لحظة النصر يا رجل .. الخسائر يمكن تعويضها .. كل الخسائر .. المهم أنكم سحقتم ذلك الرجل .. إنكم لا تدركون أى نصر حققتموه .. ستدخلون تاريخ المخابرات حتمًا بهذا الحدث .

وأنهى المحادثة بحركة مباغتة ، قبل أن يلتفت إلى (كيلرمان) ، قائلاً فى حماس :

ـ رجلك (أدهم صبرى) أصبح مجرد تاريخ .

انعقد حاجبا (كيلرمان) فى شدة ، وهو يقول فى حذر :

ـ ربما .

هتف (تورنسول) مستنكرًا :

ـ ربما ؟!.. تقول ربما ؟!.. إننى أؤكد لك أن فريقى سحق أسطورة المخابرات هذا يا رجل ، وليس لديهم أدنى شك فى أنه قد لقى مصرعه ..

تراجع (كيلرمان) فى مقعده ، وسأله مباشرة :

ـ هل رأوا جثته بأعينهم ؟

مط (تورنسول) شفتيه فى غضب ، وهو يقول :

ـ لا ضرورة لرؤية الجثة ، فى مثل هذه الظروف .. لقد نسفوا المكان والرجل وزميلته داخله ، ولم يكن هناك مخرج واحد ، و ...

قاطعه (كيلرمان) بضحكة ساخرة عالية ، استفزت مشاعره ، فصاح ساخطًا :

ـ ما الذى تعنيه ضحكتك السخيفة هذه ؟

اعتدل (كيلرمان) بحركة حادة ، وانقلبت سحنته بغتة ، وهو يقول فى حدة مفاجئة :

ـ اسمع يا جنرال .. ما سمعته منك الآن يشبه ما سمعته عشر مرات من قبل على الأقل .. شخص مغرور يؤكد أنه سحل رجل المخابرات المصرى هذا ، وأنه لم تعد لديه ذرة واحدة من الشك فى هذا ، ثم تدور الأحداث ، ونجده أمامنا مباشرة .

لوّح الجنرال بيده فى حدة ، قائلا :

ـ مستحيل !.. ذلك المصرى لا يمتلك تسعة أرواح كالقط (*).. لقد أكد رجالى أنهم سحقوه هذه المرة ، وأنا أثق بكل ما يبلغونى إياه .. إنهم محترفون .. هل تفهم ؟.. محترفون !

صبّ (كيلرمان) لنفسه كأسًا من الخمر ، وهو يقول فى برود :

ـ ما زالوا لم يروا جثته بعد .

انعقد حاجبا الجنرال فى صرامة ، وهو يقول :

ـ أهذا كل ما يحنقك ؟

ثم التقط سمّاعة الهاتف فى حركة حادة ، وضرب أزراره بأصابعه فى عنف ، ولم يكد يسمع صوت زعيم المحترفين ، على الجانب الآخر ، حتى قال فى صرامة عصبية :

ـ أريد جثته .

اعتدل الرجل فى دهشة ، وهو يقول :

ـ تريد ماذا ؟!

(*) الأمريكيون يقولون : « للقط تسعة أرواح » ، وليس سبعة ، كما تقول أمثالنا الشعبية .

صاح به الجنرال (تورنسول) فى حدة :

ـ أريد جثة ذلك المحترف ، الذى سحقتموه منذ قليل .. لا تغادروا المكان حتى تحضروا جثته .

انعقد حاجبا زعيم المحترفين ، وهو يقول غاضبًا :

ـ لقد غادرنا المكان بالفعل يا جنرال ، ولو عدنا إليه سنجد حتمًا جيشًا من رجال الأمن والشرطة هناك .. هل تعتقد أن أصوات الانفجارات لم تبلغ مسامع المسئولين بعد ؟

صرخ الجنرال فى ثورة :

ـ قلت لك : أريد جثته بأى ثمن .. هل تفهم ما أقول ؟!.. أبذل قصارى جهدك ، وقاتل جيش الأمن والشرطة هذا ، لو اقتضى الأمر ، المهم أن تحضر لى جثة ذلك المصرى بأية وسيلة .

قالها ، وأنهى الاتصال فى عنف ، حتى أن صوت ارتطام سمّاعة الهاتف بجسمه ، كاد يخترق أذن زعيم المحترفين ، فى حين قهقه (كيلرمان) ضاحكا مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ إذن فأنت تطالبهم بشن حرب شعواء ، من أجل الحصول على جثة .

قال (تورنسول) فى صرامة :

ـ المفروض أن نتيقّن من مصرعه .

رمقه (كيلرمان) بنظرة ساخرة ، دون أن يعلّق على عبارته ، وارتشف ما تبقّى من كأسه ، قبل أن يلوّح بيده ، قائلا :

ـ أتعشّم أن يتم حسم هذا الأمر ، قبل أن تصل الشحنة من (نيويورك) .

التفت إليه الجنرال (تورنسول) ، متسائلاً فى حذر .

ـ الشحنة ؟!

أجابه (كيلرمان) ، وهو يشعل سيجارته ، ويمتصّ دخانها فى استمتاع :

ـ نعم .. أكبر الشحنات قيمة ، فى تاريخ الشحن الجوى العالمى .. مليار ونصف المليار من الدولارات .

ثم انفجر ضاحكًا ، وهو يستطرد :

ـ وسيسعدنى أن أمنحها لعزيزنا (ستيفان) عن طيب خاطر .

مطّ (تورنسول) شفتيه ، وانعقد حاجباه فى شدّة ، وهو يقول محنقًا :

ـ لو أننى فى موضعك ، لالتهمنى الغيظ ، وأنا أسلم كل هذا المبلغ لوغد مثله ، مقابل أسطوانة كمبيوتر حقيرة .

هزّ (كيلرمان) كتفيه ، وهو يقول :

ـ الأسطوانة تساوى الكثير بالفعل يا جنرال ، ولكننى أتمنى رؤية وجه ذلك الوغد (ستيفان) ، بعد أن يسلمنا إياها ، ويحصل على نقودنا .. أتمنى رؤيته بالفعل .

قالها ، وعاد يقهقه ضاحكا ، وينفث دخان سيجارته فى حلقات متصاعدة كبيرة ..

وانعقد حاجبا (تورنسول) أكثر ، وهو يتطلّع إليه ، ويتساءل فى حيرة : ما الذى يضحكه إلى هذا الحد ؟!..

أى سر يخفيه فى أعماقه ؟!..

أى سر ؟!

* * *

انعقد حاجبا زعيم المحترفين فى حنق غاضب ، وهو يختفى مع أحد رجاله خلف جذع شجرة ضخمة ، وقال فى عصبية :

ـ كنت أتوقّع هذا .. المكان يكتظّ برجال الأمن والشرطة بالفعل .

أجابه الرجل ، وهو يتطلّع إلى عشرات الرجال ، فى أزيائهم الرسمية ، وهم يملئون المكان ، ويفحصون كل شبر فيه :

ـ الأمر لا يستحق كل هذا الغضب أيها الزعيم .. دعهم يتولّون الأمر عنا .

التفت إليه زعيمه بنظرة عصبية متسائلة ، فتابع بسرعة :

- إنهم سيسعون للبحث عن جثث وسط الحطام بالفعل ، وعندما يعثرون على جثة ذلك المصرى ، وتنطلق سيارة الإسعاف لنقله إلى المشرحة ، نهاجم نحن السيارة، ونستولى على جثته .

صمت زعيمه لحظات ، ثم تسللت إلى شفتيه ابتسامة ، وهو يقول :

- فكرة جيدة يا رجل .

ارتفع من خلفهما صوت ساخر ، يقول :

- بل تبدو لى فكرة سخيفة للغاية .

انتفض جسد الرجلين ، واستدارا فى سرعة مدهشة إلى مصدر الصوت ، وكل منهما يشهر مدفعه الآلى ..

ثم اتسعت عيونهما فى ذهول ، والزعيم يهتف :

- أنت ؟!.. مستحيل !!

ولم يكن ذهوله هذا مبالغًا ، وإنما كان انفعالاً طبيعيًا للغاية ؛ فالواقف أمامهما لم يكن سوى ضحيتهما ، التى لم يكن لديهما أدنى شك فى أنهما سحقاه سحقًا ..

كان (أدهم) ..

(أدهم صبرى) .

* * *

٢ - العودة ..

عندما استعد المحترفان لإطلاق صاروخيهما على المطعم ، دارت عينا (أدهم) فى المكان فى سرعة وتوتر ، و (جيهان) تقول ، محاولة تقليد سخريته فى الأزمات :

- عزائى الوحيد أننا سنلقى مصرعنا معًا يا سيادة العميد .. هذا شرف لا يناله الكثيرون ، ولا يحظى به إلا ..

فوجئت به يقبض على معصمها فجأة ، هاتفًا :

- أسرعى ..

وجذبها فى قوة نحو منطقة الظل أسفل السلم ، فصاحت فى دهشة :

- لا فائدة من الاختباء .. إنها صواريخ قوية ، ولن يمكننا أن ....

بترت عبارتها بغتة ، واستكملتها بشهقة عنيفة ، عندما ضرب جزءًا من الجدار بقدمه فى قوة ، فتهاوى مع ضربته ، كاشفًا فجوة مستطيلة كبيرة ، فصاحت :

- ما هذا بالضبط ؟


شعرت بجسدها يرتطم بدرجات سلم ، ويتدحرج فوقه فى عنف..

فى نفس اللحظـة ، التى نطقت فيها عبارتها ، كان زعيم المحترفين يخفض يده ، هاتفًا :

ـ أطلقا .

وانطلق الصاروخان نحو المطعم ..

وبكل قوته ، دفع (أدهم) (جيهـان) عبر الفجـوة ، هاتفًا :

ـ احمى رأسك .

شعرت بجسدها يرتطم بدرجات سلم ، ويتدحرج فوقـه فى عنف ، فى حين وثب (أدهم) عبر الفجـوة بـدوره ، فى نفس الثانية التى أصاب فيها الصاروخان هدفهما ..

ودوى الانفجار ..

ومع عنفه ، اندفع جسد (أدهم) إلى الأمام فى قـوة ، وتجاوز جسد (جيهان) التى أخفت رأسها بذراعيهـا ، وهى تطلق صرخـة عنيفـة ، امتزجت بصوت ارتطامـه بأرضية قبو المطعم ، فى حين تناثرت عشـرات الشظايا والأحجار عبر بـاب القبـو ، وغمـرت جسديهما بطبقـة كثيفة من الغبار والرماد ..

واستمر الدوى فى أذنى (جيهان) لحظـات ، قبل أن يتسلل صوت (أدهم) إلى أذنيها ، عبر الغبار والظـلام ، وهو يهمس فى قلق :

- (جيهان) .. أأنت بخير ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، وهى تسعل فى قوة ، قبل أن تهتف ، وهى تبذل قصارى جهدها لاختراق الظلام والغبار ببصرها .

- نعم .. أنا بخير .. كيف لاحظت وجود هذا القبو ؟. لقد صنعوه بحيث يختفى بابه كجزء من الجدار نفسه !.. إننى لم أنتبه إلى وجوده ، إلا عندما حطّمته بقدمك !

تنهّد (أدهم) ، وهو يجيب :

- لاحظت مقبضه فى اللحظة الأخيرة .. كانت ألسنة اللهب المتأجّجة فى المطبخ تنعكس عليه .

ضحكت قائلة :

- من حسن حظنا .

وسعلت مرة أخرى ، قبل أن تستدرك فى شىء من العصبية :

- ولكن الظلام الدامس يمنعنى من الاستمتاع بوجودنا معًا يا سيادة العميد ..

قل لى : هل نجونا من الانفجار ، لنقضى نحبنا فى هذا القبر الفسيح ؟!

ابتسم (أدهم) ، قائلاً :

- إنه قبو ، وليس قبرًا يا زميلتى العزيزة ، وهذا يعنى أنه توجد نافذة فى مكان ما هنا .. القانون يحتم هذا ؛ لضمان التهوية الصحية (*)

غمغمت :

- أتعشّم أن يكون صاحب المطعم ممن يلتزمون بالقانون .

راحا يتحسّسان الجدران بأيديهما فى حذر ، حتى قال (أدهم) :

- ها هو ذا .

تنهّدت فى عمق ، مغمغمة :

- حمدًا لله .

عالج (أدهم) رتاج النافذة فى سرعة ومهارة ، فى حين حاولت (جيهان) أن تستوعب ما يفعله ، فى الظلام الدامس المخيم على المكان ، وسألته ضاحكة ، محاولة السيطرة على توترها :

- أين تعلّمت كل هذا ؟.. هل كنت تصادق بعض اللصوص فيما مضى .

(*) حقيقة .

أجابها ساخرًا :

ـ بل كنت زعيمًا لهم .

ومع آخر حروف كلماته ، انفتحت النافذة ، وتسلَّل ضوء خافت إلى المكان ، جعلها تهتف فى سعادة ، وهى تصفق بكفيها فى جذل :

ـ لقد نجحت .

أشار إلى القضبان المعدنية ، التى تمتد رأسيًا ، عبر فراغ النافذة ، وهو يقول :

ـ ليس بعد حسبما أعتقد .

عاد حاجباها ينعقدان فى توتر ، وهى تقول :

ـ عقبة أخرى سخيفة .. هل تعتقد أننا نستطيع تجاوزها ؟

تلفت حوله ، وهو يقول :

ـ ربما وجدنا ما يساعدنا على هذا .. إننا داخل قبو كما تعلمين ، والناس يحتفظون بأشياء عجيبة فى مثل هذه الأماكن .

كان يعتصر عينيه ، ليفحص المكان ، تحت الضوء الخافت ، المتسلل من النافذة ، قبل أن يعتدل ، ويقول فى ارتياح :

ـ عظيم .. هذا ما نحتاج إليه بالضبط .. صندوق

أدوات .. من الواضح أن صاحب المطعم اعتاد إصلاح كل شىء بنفسه .

استغلَّ الأدوات التى عثر عليها ، وراح يعالج الإطار المعدنى للنافذة ، الذى تُبَتّ فيه تلك القضبان الرأسية ، و (جيهان) تعاونه فى حماس ، حتى ارتفع صوت أبواق سيارات شرطة وإسعاف قادمة ، فهتفت :

ـ حمدًا لله .. سيخرجوننا من هذه المصيدة .

أجابها ، وهو يعمل بسرعة أكبر :

ـ بالتأكيد ، وسيحتجزوننا أسبوعًا كاملاً لسماع أقوالنا ، والسؤال عن سبب قدومنا إلى هذا المكان ، وعلاقتنا بما أصابه ، وفى هذه الأثناء يكون الأمريكيون قد حصلوا على الأسطوانة ، أو استعادها الروس ، ولا يتبقَّى لنا إلا البكاء على العسل المسكوب .

استوعبت منطقه على الفور ، وراحت تعاونه بسرعة أكبر ، وصوت السيارات يقترب أكثر وأكثر ، وفى نفس اللحظة التى توقَّفت فيها أمام حطام المطعم ، انتزع (أدهم) الإطار المعدنى من مكانه ، هاتفًا :

ـ أخيرًا .

ثم أشار إلى (جيهان) ، وقال مبتسمًا :

ـ النساء أولًا .

لوّحت بيدها ، قائلة :

ـ كم يسعدني العمل مع رجل مخابرات لبق .

ثم وثبت تتعلق بالنافذة ، وانثنى جسدها فى رشاقة ، وهى تعبرها فى سرعة ، ولحق هو بها فى حركة أكثر مرونة ، وما إن أصبحا خارج المكان ، حتى همست (جيهان) ، وهى تشير إلى السيارات العديدة ، التى تعلوها مصابيح متألقة ، ينتشر ضوؤها فى المكان كله :

ـ بقيت عقبة واحدة .. أن نبتعد عن هذا المكان ، قبل أن يعثروا علينا .. المشكلة أن المطعم مقام فى ساحة خالية تقريبًا ، وأقرب مكان يمكن الاختباء فيه هو تلك الأشجار ، على بعد خمسة عشر مترًا من هنا ، ويمكننا أن نجرى نحوها بالطبع ، لو أنهم جميعًا من العميان ، الذين يعجزون عن رؤيتنا ، فى مثل هذه الظروف .

صمت لحظة ، ثم أجاب فى حزم :

ـ هل تتصورين أن الأعمى وحده لا يمكنه الرؤية ؟

سألته فى دهشة :

ـ ماذا تعنى ؟

ابتسم فى سخرية ، وهو يقول :

ـ أعنى أنه من الناس من تؤكد فحوصهم الطبية أنهم يتمتعون ببصر حادّ ، على الرغم من أنهم لا يختلفون كثيرًا عن العميان .

امتلأت نفسها بحيرة أكبر ، وهى تقول :

ـ لم أفهم بعد!.. ما الذى تقصده بقولك هذا ؟!

اتسعت ابتسامته ، وامتلأت بالمزيد من السخرية ، وهو يجيب :

ـ سترين .

كان المكان مزدحمًا بعشرات من رجال الأمن والشرطة ، وعدد من المفتشين ، الذين انهمكوا فى فحص الحطام ، ولقد فوجئت (جيهان) بـ (أدهم) ينهض فجأة ، ويشير إلى أحد رجال الشرطة ، قائلًا بالفرنسية فى لهجة آمرة :

ـ أيها الشرطى .

تطلّع إليه الشرطى فى دهشة ، ولكن لهجته الآمرة جعلته يتجه إليه طائعًا ، فأشار (أدهم) إلى جزء من الحطام ، وقال بنفس اللهجة الصارمة الآمرة :

ـ افحص هذا الجزء ، واحتفظ بعينة من ذلك الجزء المحترق ، وأرسلها إلى مكتب كبير المفتشين باسم المفتش (دريك) .. هل تذكر الاسم ، أم أننى مضطر لإعادته ؟

أجابه الشرطى فى آلية :

ـ سأذكره يا سيادة المفتش .

أومأ (أدهم) برأسه ، قائلا :

ـ عظيم .

ثم التفت إلى (جيهان) ، مستطردًا :

ـ هل عثرت على أى شىء ، يمكنك تحليله فى معملك يا دكتوره (مارى) ؟

انتبهت (جيهان) فجأة إلى أنها ما زالت راقدة أرضًا ، فنهضت قائلة :

ـ آه .. ليس بعد .. ربما لو بحثنا فى ركن آخر .

قال (أدهم) بنفس اللهجة الصارمة :

ـ بالتأكيد يا دكتورة (مارى) .. بالتأكيد .

وأمسك يدها ، ليقودها بعيدًا عن المكان ، وهو يسأل الشرطى :

ـ هل وصل المفتش (كارل) ؟.. المفروض أن يقابلنى هنا ؟

أشار الشرطى إلى حيث وقفت مجموعة السيارات ، وهو يقول :

ـ لست أدرى يا سيادة المفتش ، ولكن هناك عدد كبير من الـ ..

قاطعه (أدهم) فى صرامة :

ـ لا بأس .. لا بأس .. افعل ما أمرتك به .. هيا .

وقاد (جيهان) بعيدًا عن المكان فى هدوء واثق ، جعلها تهتف منبهورة :

ـ كيف يمكنك فعل هذا ؟.. أنت جرىء للغاية .

ابتسم ساخرًا ، وهو يقول :

ـ هكذا الناس يا زميلتى العزيزة .. ما إن تتصرفين بمنتهى الثقة والحزم ، حتى لا يشك أحدهم لحظة واحدة ، فى أنك صاحبة حق فيما تفعلين .

ثم التفت إليها ، وضحك مستطردًا :

ـ كيف تتصورين كيفية نجاح النصابين فى خداع الآخرين إذن ؟

لم تدر أى انفعال سرى فى جسدها ، فى تلك اللحظة ..

لقد شعرت أن كيانها كله يتهدّج بكلماته ..

وأن قلبها يلهث باسمه ..

حتى يدها ، التى يمسك بها ، راحت ترتجف بين أصابعه ، وأصبحت باردة كالثلج ..

ولدهشتها ، كادت تنفجر باكية ، وتلقى نفسها بين ذراعيه ..

لم تدر ما الذى فعله بها ، عندما التقت عيناه بعينها ..

لقد ذابت فى أعماق عينيه ، وكأنها مراهقة صغيرة ، عثرت بغتة على فتى أحلامها ، الذى رسمه خيالها منذ نضوجها الأوَّل ..

وكان هذا يدهشها حقًا ..

بل يربكها ..

إنها لم تتصوَّر أبدا أنها ستقع يوما فى حب رجل ما ، على هذا النحو ..

لم تشعر أبدًا بأنها عثرت على الرجل ، الذى يستحق حبها ..

أبدًا ..

حتى التقت به ..

لابد أن تعترف بأنه أثار إعجابها ، عندما سمعت مغامراته ، التى يتهامسون بها فى جهاز المخابرات العامة ، والتى جعلته أشبه بأسطورة حية فى هذا العالم ..

بل لقد حصل بالفعل على ذلك اللقب ..

لقب (الأسطورة) ..

ولقد حسدت زميلتها (منى توفيق) كثيرًا ؛ لأنها تعمل إلى جواره ..

حتى بعد إصابتها الأخيرة ، ظلت تحسدها ، لأنها كانت تعمل مع الأسطورة ..

وعندما أخبروها أنها ستعمل إلى جواره هذه المرة ، رقص قلبها طربًا وحماسًا ، وامتلأت نفسها بانفعال جارف ؛ لأنها ستعمل وتشاهد (رجل المستحيل) وهو يقاتل بأسلوبه الفريد ، الذى لا يضاهيه فيه أحد ، وستشاركه مغامراته وبطولاته ..

ولكنها لم تكد تلتقى به ، وتشاهد ما يفعله ، حتى تبدَّلت مشاعرها تمامًا ..

لم تعد معجبة به فحسب ..

أو حتى مبهورة بما يفعله ..

لقد سقطت صريعة حبه ، الذى ملأ كيانها حتى النخاع ، وجرى فى عروقها مجرى الدم ..

نعم .. لن تخدع نفسها بادعاء العكس ..

إنها تحبه ..

تحبه ..

تحبه ..

« انظرى .. » ..

انتزعها قول (أدهم) من شرودها ، فانتبهت بغتة إلى أنهما قد تجاوزا الساحة الخالية ، إلى غابة الأشجار المحيطة ، فالتفتت بسرعة إلى حيث يشير ، ووقع بصرها على زعيم المحترفين ، وهو يقف خلف الشجرة

مع أحد رجاله ، يراقبان ذلك الحشد المحيط بحطام المطعم ، فتراجعت بسرعة ، وهى تهمس :

ـ إنهما اثنان من هؤلاء الأوغاد ، الذين حاولوا قتلنا .

كادت تندفع نحوهما غاضبة ، ولكنه استوقفها فى حزم ، قائلا :

ـ مهلا .. لقد فقدنا المدفع الآلى مع الانفجار ، ثم إنه مازال هناك آخرون .. لقد أحصيت خمسة من القتلى ، وهذا يعنى أنه ما زال هناك مثلهم على قيد الحياة ، أمامنا اثنان منهم ، ويتبقى ثلاثة آخرون ، لسنا نعلم أين هم بالضبط .

سألته فى توتر :

ـ هل تقترح أن نبحث عن هؤلاء الثلاثة أولاً ؟

تلفت حوله لحظات فى بطء ، ثم ابتسم فى سخرية ، قائلاً :

ـ كلاً .. دعيهم هم يبحثون عنا .

قالها ، واتجها على أطراف أصابعهما إلى حيث يقف الزعيم والرجل ، اللذين انهمكا فى حديثهما حول أمر (أدهم) و (جيهان) ، فقاطعهما (أدهم) بعبارته السالف ذكرها ، والتفتا إليه فى تحفز ، ثم ارتدا ذاهلين ، و ..

ومع ارتدادهما ، تحرك (أدهم) و (جيهان) بسرعة البرق ..

لقد وثبت (جيهان) فى مهارة ، وركلت المدفع من يد الرجل ، قائلة :

ـ دعنا نتعارف أولاً بلا أسلحة .

وقبل أن يسترد الرجل جأشه ، كانت تدور حول نفسها فى سرعة ورشاقة ، وتركله فى أنفه بكل قوتها ..

وفى نفس اللحظة ، كان (أدهم) يمسك معصم الزعيم ، ويزيح مدفعه جانبًا ، ثم يهوى على فكه بلكمة كالقنبلة ، قائلاً :

ـ هل أدهشتك رؤيتى يا زعيم الأوغاد ؟

كانت اللكمة بالغة القوة ، فارتطم الزعيم بجذع الشجرة فى عنف ، وارتد عنها ككرة من المطاط ، استقبلها (أدهم) بلكمة أكثر قوة فى معدة الزعيم ، الذى شهق فى ألم ، وانثنى جسده إلى الأمام ، و ...

وفجأة ، ألقى جسده أرضًا ، وأمسك قدمى (أدهم) ، وهو يهتف غاضبًا :

ـ أدهشتنى بالفعل ، ولكنها لم تفقدنى مهارتى .

وبحركة سريعة ، جذب قدمى (أدهم) ، وهو يدور حول نفسه ، فاختل توازن (أدهم) ، وسقط على ظهره ،

ولكن إحدى قدميه تحررت ، وهوت على فك الرجل بركلة عنيفة ، وهو يقول :

ـ مهارتك هذه تسعدنى .

ثم هبَّ واقفا على قدميه ، وهو يستطرد :

ـ فهى الوسيلة المثلى لإثبات مهارتى .

استلَّ الزعيم من حذائه الطويل خنجرًا ماضيًا ، وهو يقول فى وحشية :

ـ أثبتها إذن .

كان الرجل الآخر قد انقضَّ على (جيهان) فى هذه الأثناء ، واشتبك معها فى قتال شرس ، فأضاف الزعيم ، وهو ينقضَّ على (أدهم) بدوره :

ـ سنقتلكما معًا ، ونسلخ جلديكما كالنعاج .

وثب الرجل وثبة محترف حقيقى ، ونصل خنجره يندفع نحو قلب (أدهم) مباشرة ، إلا أن هذا الأخير قفز جانبًا فى خفة ، وقبض على معصم الزعيم فى قوة ، ثم هوى على فكه بقبضته ، ولوى ذراعه فى الوقت ذاته ، وهو يقول :

ـ يا لك من متسرِّع :

سقط الخنجر من يد الرجل ، على الرغم منه ، و (أدهم) يدور حول نفسه ، دون أن يترك ذراعه ، ثم

يهوى على مؤخرة عنقه بلكمة أخرى أشد عنفا ..

وزمجر الزعيم فى ألم ، وحاول أن يستدير ليواجه (أدهم) ، إلا أن هذا الأخير لكمه فى معدته كمطرقة من الصلب ، ثم حطَّم أنفه بلكمة كالصاعقة ، وهو يقول :

ـ فلنؤجِّل الحديث عن سلخنا هذا لما بعد .

ودفعه ليرتطم مرة ثانية بجذع الشجرة فى عنف ، ثم استقبل ارتدادته بلكمتين سريعتين كالبرق ، فى أنفه وفكه ، مستطردًا :

ـ عندما تستعيد وعيك .

كان هذا الكمّ من اللكمات والضربات أكثر ما يمكن أن يحتمله بشر ..

حتى ولو كان محترفًا ..

لذا ، فقد سقط الزعيم فاقد الوعى ، تحت قدمى (أدهم) ، فى نفس اللحظة التى استلَّ فيها الرجل الآخر خنجره ، وصاح وهو يهم بطعن (جيهان) :

ـ أنت تستحقين القتل أيتها الـ ...

قبضت أصابع (أدهم) الفولاذية على معصمه بغتة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ إياك أن تسبَّها .

ثم انتزعه من عنقه فى قوة مخيفة ، مستطردًا :

- إننا نقتل من يمسّ نساءنا بسوء .
أدار الرجل يده ، لينقل الطعنة إلى صدر (أدهم) ، إلا أن هذا الأخير حطّم أنفه بلكمة كالقنبلة ، مضيفًا :
- هل تفهم أيها الوغد ؟
غامت الدنيا أمام عينى المحترف ، وتدفّقت الدماء من أنفه فى غزارة ، فركلت (جيهان) الخنجر من يده ، قائلةً :
- هل سمعت يا رجل ؟.. لن يمكنك مواجهتنا معًا .
ثم حطّم (أدهم) أسنانه بلكمة أخيرة ، وهو يقول فى حزم :
- الأفضل لك إذن أن تفقد وعيك .
سقط الرجل فاقد الوعى ، إلى جوار زعيمه ، وتنهّدت (جيهان) فى عمق ، قبل أن تدير عينيها إلى (أدهم) ، قائلةً فى امتنان :
- أشكرك .
سألها فى دهشة :
- علام ؟!
سيطرت على عواطفها فى صعوبة ، وهى تقول :
- على كل ما قلته وفعلته .
ثم تنحنحت ؛ لتطرد عن نفسها كل القلق والتوتر ، قبل أن تقول :

- دعنا نبحث عن الآخرين .
لم يعلّق بحرف واحد ، وهما يسيران وسط الأشجار فى حذر ، حتى لاحت لهما سيارة المحترفين ، فأشارت إليها ، قائلة فى حماس :
- ها هم أولاء .
انعقد حاجباه ، وهو يلقى نظرة متفحّصة على السيارة ، قبل أن يغمغم :
- عجبًا !.. يبدو لى وكأنهم ..
بتر عبارته بغتة ، فسألته فى فضول :
- وكأنهم ماذا ؟
أدهشها أن غادر مكمنه بغتة ، وهو يقول :
- تعالى .
تبعته فى حيرة ، وأدهشها أكثر أن الرجال الثلاثة داخل السيارة لم يحركوا ساكنًا ، ولم يطلق أحدهم النار عليهما ، وهما يقتربان ويقتربان ، حتى بلغا السيارة ، فقال (أدهم) فى توتر :
- كما تصوّرت تمامًا .
شهقت (جيهان) فى دهشة ، وهى تحدّق فى الرجال الثلاثة ، الذين اخترقت الرصاصات رءوسهم ، وسقطوا صرعى ، فى بحيرة من الدم ، وهتفت متوترة :

- ربّاه !.. من فعل بهم هذا ؟

قبل أن يجيبها (أدهم) ، ارتفع صوت ساخر ، يقول بالروسية :

- نحن يا سيدتى .

التفت (أدهم) و (جيهان) فى سرعة إلى مصدر الصوت ، ووقع بصرهما على رجلين وامرأة ، يصوبون إليهم مسدساتهم الآلية ..

(إيفان) و (شلينكو) و (أنستازيا) ..

الفريق الروسى ..

القاتل .

* * *



تبعته فى حيرة ، وأدهشها أكثر أن الرجال الثلاثة داخل السيارة لم يحرّكوا ساكنًا ..

٢ - صفقة رءوس ... نووية ...

ارتفعت دقَّات هادئة عند باب حجرة مدير المخابرات العامة المصرية ، الذى تنحنح ، واعتدل فى مجلسه ، قائلاً :

- ادخل يا (قدرى) .

دفع (قدرى) الباب ، ودلف إلى الحجرة بجسده البدين الضخم ، وهو يقول :

- معذرة للتأخير يا سيادة المدير .. لقد انتزعونى من فراشى ، وطلبوا منى الحضور على الفور ، والواقع أننى ..

قاطعه المدير :

- لا بأس .. اجلس يا (قدرى) .. أريد التحدُّث معك .

جلس (قدرى) على الأريكة المجاورة لمكتب المدير ، وهو يسأل فى قلق :

- إنه حديث بشأن عملى .. أليس كذلك ؟

أجابه المدير مبتسمًا :

- كلا .. إنه ليس كذلك أبدًا .

وعلى الرغم منه ، حملت ابتسامة المدير الكثير من

قلقه وتوتره ، فعجزت عن إقناع (قدرى) ، الذى خفض عينيه ، قائلاً فى أسى :

- أعلم أننى فقدت مهارتى الأساسية ، بعدما أصاب يدى ، ولكن يمكننى أن أكون مفيدًا ، فى عملية تدريب الكوادر الجديدة ، و ...

قاطعه المدير بشىء من الحزم هذه المرة :

- قلت لك : إنه ليس بشأن عملك .

رفع إليه (قدرى) عينين متسائلتين ، وران على الحجرة صمت رهيب ، وكلاهما يتطلّع إلى الآخر ، ثم تراجع المدير فى مقعده ، وسأله :

- أنت أقرب الأصدقاء لـ (أدهم) .. أليس كذلك ؟

انتفض جسد (قدرى) فى عنف ، وكاد قلبه يثب من حلقه ، وهو يهتف :

- (أدهم) ؟!.. هل أصابه مكروه ؟

انعقد حاجبا المدير فى توتر ، وهو يميل إلى الأمام ، قائلاً فى صرامة :

- أجب السؤال .

استغرق (قدرى) دقيقة كاملة ليتمالك جأشه ، قبل أن يجيب :

- المفترض أننى كذلك .

قال المدير فى حدة :

ـ المفترض ؟!

تنحنح (قدرى) فى توتر ، وأجاب :

ـ بلى .. أنا أقرب صديق له .. ماذا فى هذا ؟

تراجع المدير فى مقعده ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يسأله فى اهتمام :

ـ هل تعتقد أنه يمكنك تقدير ردود أفعاله ، مع الصدمات العاطفية الحادة ؟

تدافعت المشاعر فى عروق (قدرى) ، وهو يقول :

ـ نعم .. أعتقد هذا ، ولكن فيم السؤال يا سيدى المدير ؟.. ماذا حدث بالضبط ؟

ران الصمت على المكان لحظات أخرى ، قبل أن ينهض المدير من خلف مكتبه ، ويلتقط البرقية ، قائلاً فى حذر :

ـ لقد وصلتنا هذه البرقية من (نيويورك) ، منذ ما يقرب من الساعة .

التقط (قدرى) البرقية ، وجسده كله يرتجف انفعالاً ، ولم يكد يلقى نظرة على محتوياتها ، حتى تحولت ارتجافته إلى انتفاضة عنيفة ، اهتز لها جسده المكتظ كله ، وهو يطلق شهقة قوية ، امتزجت بصرخته المبحوحة :

ـ لا .. ليس (منى) .

ثم انهار باكيًا فى مرارة ، مرددًا :

ـ (منى) .. يا للخسارة !.. يا للخسارة !

كانت دموعه تسيل أنهارًا ، حتى أن المدير لم يقاطعه بحرف واحد ، وتركه يفرغ انفعاله الأولى كله ، قبل أن يقول :

ـ البرقية مرسلة من (نيويورك) .. أرسلها الدكتور (أحمد صبرى) ، شقيق (أدهم) ، ووضع فى بدايتها الأحرف المتفق عليها ، والتى تشير إلى أنه هو مرسل البرقية ، وأن كل ما جاء بها صحيح .. أضف إلى هذا أنه استخدم شفرة خاصة ، لقنه إياها (أدهم) للطوارئ ، وكل هذا يعنى أن الخبر صحيح .

بكى (قدرى) بحرارة أكثر ، وتابع المدير :

ـ المشكلة الآن أن الدكتور (أحمد) يؤكد ضرورة معرفة (أدهم) بالأمر ، ولكن (أدهم) يتولى الآن عملية بالغة السرية والخطورة والتعقيد ، ولا يمكننا المخاطرة بإفسادها قط ، وهذا ما دعانى لإحضارك .. هل تعتقد أن معرفة (أدهم) بالأمر ستجعله يتخلى عن المهمة ، وينطلق فورًا إلى (نيويورك) ، أم أنه سيواصل عمله حتى النهاية ؟

هزّ (قدرى) رأسه ، وقال من خلال دموعه :

ـ لست أدرى .

حدّق المدير فى وجهه بدهشة ، قبل أن يهتف مستنكرًا فى غضب :

ـ لست تدرى ؟!.. لماذا تتصوّر أننى أرسلت فى طلبك إذن ؟!.. المفروض أنك الوحيد ، الذى يمكنه إجابة مثل هذا السؤال .

رفع (قدرى) عينيه المغرورقتين بالدموع إليه ، وهو يقول :

ـ (أدهم) لا يمكنه التخلّى عن مهمته قط .

تنهّد المدير فى ارتياح ، وقال :

ـ فى هذه الحالة ..

ولكن قبل أن يتمّ عبارته ، استدرك (قدرى) فى سرعة :

ـ إلا عندما يتعلّق الأمر بـ (منى) .

انعقد حاجبا المدير فى غضب ، وهو يقول :

ـ أى جواب هذا ؟

أجابه (قدرى) فى أسى :

ـ الحقيقة يا سيادة المدير .. (منى توفيق) حالة خاصة فى حياة (أدهم صبرى) .. إنها جزء من كيانه ،

ليس من السهل أن يتخلّى عنه .. نبضة من نبضات قلبه ، لا يمكنها أن تتجاوزه .. قضية دائمة فى أعماقه ، لا تسقط بالتقادم .. إنها الحالة التى يتخلّى عندها (أدهم) عن كل القواعد والأعراف .. الحالة الوحيدة ، التى لن يتمكّن أعظم الخبراء من استنتاج رد فعله فيها .

ازداد انعقاد حاجبى المدير ، وهو يقول :

ـ وهنا تكمن المشكلة ، التى حاولت تجاوزها فى هذه العملية .

أراد (قدرى) أن يسأله عما يعنيه هذا القول ، إلا أن المدير تابع فى سرعة :

ـ ولكن جوابك حسم الأمر ، وجعلنى أتخذ قرارى .

والتفت إليه ، مستطردًا فى حزم :

ـ دع (أدهم) يتمّ مهمته ، دون أن يخوض ذلك الصراع النفسى ، وعندما ينتهى سيكون عليه أن يتلقّى الصدمة ، ويتفاعل معها كيفما يشاء .

عاد الصمت يغلّف المكان كله لبضع دقائق ، قبل أن يمسح (قدرى) دموعه ، ويقول فى حسم :

ـ سيّدى .. أريد السفر إلى (أمريكا) .

التفت إليه المدير فى دهشة ، قبل أن يقول :

ـ ولماذا ؟.. ما الذى يمكنك فعله هناك ؟

انحدرت دموعه على وجنتيه مرة أخرى ، وهو يجيب :

ـ على الأقل سأكون إلى جوارها .

أراد المدير أن يناقشه فى جدوى هذا ، إلا أنه لم يستطع تدمير مشاعره على هذا النحو ، فربَّت على كتفه ، قائلا :

ـ فليكن يا (قدرى) .. سأعمل على أن تحملك إليها أوَّل طائرة .

بكى (قدرى) فى حرارة ، وهو يقول :

ـ أشكرك يا سيِّدى .. أشكرك كثيرًا .

راقبه المدير فى صمت ، حتى غادر الحجرة ، ثم تنهَّد فى عمق ، واتجه مرة أخرى إلى النافذة ، وراح يتطلَّع عبرها إلى الساحة فى شرود ، وعقله يحمل تساؤلا واحدًا ..

كيف يمكن أن يستقبل (أدهم) مثل هذا الخبر ؟!.. كيف ؟!..

* * *

ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتى (ستيفان) ، وهو ينهض لاستقبال (سيرجى كوربوف) ، الذى صافحه فى برود ، قائلا :

ـ لم يكن لديك أدنى شكّ فى حضورى .. أليسَ كذلك ؟

لوَّح (ستيفان) بكفه ، قائلا :

ـ إنها صفقة محترفين يا مستر (كوربوف) .

وأشار إليه بالجلوس ، وهو يجلس بدوره خلف مكتبه ، قائلا :

ـ المهم يا عزيزى .. كيف يمكننا إتمام صفقتنا ؟

أجابه (كوربوف) ببروده الصارم :

ـ لم أتلق بعد أية تعليمات ، فى هذا الشأن .

انعقد حاجبا (ستيفان) ، وهو يقول فى حدة :

ـ وما الذى يعنيه هذا ؟!.. المفروض أننا هنا لمناقشة الأمر .

أشار إليه (كوربوف) ، قائلاً :

ـ أخبرنى ماذا لديك ، وسنبحث عن أفضل وسيلة لإتمام الصفقة .

قاب (ستيفان) فى حدة :

ـ ما لدى بسيط للغاية .. أنتم تأخذون الأسطوانة ، ونحن نأخذ الرءوس النووية .. هل يبدو لك هذا معقدًا ؟

رمقه (كوربوف) بنظرة باردة ، وهو يقول :

ــ إنها صواريخ ذات رءوس نووية يا مستر (ستيفان)، وليست صناديق فودكا عادية .. كيف تتصور قدرتنا على نقلها خارج البلاد ؟

هبَّ (ستيفان) من مقعده، ولوَّح بسبابته فى وجهه بغضب، صائحًا :

ــ لا تناورنى فى هذا الشأن أيها الروسى .. إننى لست أحمق غبيًا، لتحاول خداعى على هذا النحو .. الجميع يعلمون أنكم ما زلتم الجهة الأكثر قوة فى بلادكم، وأنكم تستطيعون فعل كل ما يحلو لكم، ولو أردتم نقل خمسة رءوس نووية عبر حدودكم، فلن يجرؤ أحد على منعكم .

لم تهتزَّ شعرة واحدة فى رأس (كوربوف)، وهو يتطلَّع إليه فى صمت، قبل أن يقول بنفس البرود :

ــ ألديك خطة محدودة ؟

تطلَّع إليه (ستيفان) لحظة فى غضب، قبل أن يعود إلى مقعده، ويشعل سيجارته، قائلاً فى حدة :

ــ بالتأكيد .

ثم نفث دخان السيجارة فى عمق، مستطردًا :

ــ بعد خمس ساعات بالتحديد، ستهبط فى مطاركم العسكرى فى (موسكو) طائرة شحن، تحمل العلم

الأمريكى، وعليكم تسليمها الصواريخ الخمسة، دون توجيه أية أسئلة أو استفسارات، وفور إقلاعها، وتلقينا إشارة منها بهذا، سنسلمكم الأسطوانة فورًا .

انعقد حاجبا (كوربوف)، وهو يقول فى صرامة :

ــ هذا لا يكفى .

بدا الغضب على وجه (ستيفان) لحظات، قبل أن يقول :

ــ ما الذى يكفى إذن ؟

أجابه (كوربوف) :

ــ أن نثق فى أن غيرنا لن يحصل على نسخة إضافية من تلك الأسطوانة .

لوَّح (ستيفان) بيده، قائلاً :

ــ لكم كلمتنا .

ابتسم (كوربوف) فى سخرية، وهو يقول :

ــ أهذا مشهد من فيلم هزلى أم ماذا يا مستر (ستيفان) ؟.. ما الذى يمكن أن تساويه كلمتكم فى مسامعنا ؟.. دعنى أجب أنا .. إنها لا تساوى شيئًا فى الواقع .. لا تساوى حتى صفرًا .

عقد (ستيفان) حاجبيه، وهو يقول فى حدة :

ــ وأية ضمانات يمكننا منحكم إياها يا مستر (كوربوف) ؟

صمت (كوربوف) طويلاً ، محاولاً البحث عن جواب ، ثم لم يلبث أن قال :

- امنحنى فرصة للتفكير .

قالها ، وعقله يتساءل بالفعل ..

كيف يمكن ضمان أمر كهذا ؟..

كيف ؟!..

* * *

تألقت عينا (أنستازيا مينوفيتش) بوحشية عجيبة ، وهى تداعب مسدسها ، وتتطلع إلى (أدهم) و (جيهان) ، قائلة :

- المفروض أن تعترفا بتفوقنا أيها المصرى .. لقد أدركنا على الفور أن لك علاقة بالاضطرابات والتفجيرات ، التى تحدثوا عنها ، فهرعنا إلى هنا ، دون حتى أن نستشير الزميل (كوربوف) .

ابتسم (إيفان) فى سخرية ، وقال وهو يراقب (شلينكو) ، الذى انتهى من تقييد (جيهان) ، وراح يحكم القيد حول معصمى (أدهم) فى قوة :

- (سيرجى) العزيز غاضب للغاية ؛ لأنك نجوت من القبر الثلجى ، الذى ألقاك فى أعماقه ، وأنا واثق من أنه سيشكرنا كثيراً ، عندما يعلم أننا أعدناك إليه ، بصحبة رفيقتك الحسناء هذه .

قال (أدهم) ساخراً :

- أليس من الأفضل أن تطلقوا النار على رأسينا مباشرة ؟

زمجر (شلينكو) ، وهو يقول :

- إننى أفضّل هذا .

أطلق (أدهم) ضحكة ساخرة قصيرة ، وهو يقول :

- أنت رجل حكيم يا (شلينكو) .

هتفت (أنستازيا) :

- أما أنا ، فأميل إلى الأسلوب البطىء .

وبرقت عيناها مرة أخرى ، قبل أن تستطرد :

- إنه يجعل العذاب أكبر .

رفعت (جيهان) أحد حاجبيها ، قائلة فى سخرية :

- يا لرقة مشاعرك !

التفتت إليها (أنستازيا) فى غضب ، ثم اندفعت نحوها ، وجذبتها من شعرها فى قسوة ، وهى تقول فى شراسة :

- اسمعينى جيداً يا جميلتى .. لا أحد يسخر من (أنستازيا) أبداً .. هل ترغبين فى موت عاجل ؟

كانت تتوقع أن ترتجف (جيهان) خوفاً ، ولكنها فوجئت بها تقول :

- بلا شك .. هذا سيريحنى من رؤية وجهك القبيح على الأقل .

تقافزت شياطين الغضب كلها من عينى (أنستازيا) ، وهى تقول :

- هكذا ؟!

ثم استلت إبرتها الطويلة من حزامها فى سرعة ، مستطردة :

- سأنتزع الرؤية من عينيك نهائيًا إذن .

وجذبت شعرها على نحو أكثر عنفًا ؛ لترفع عينيها إليها ، وارتفعت يدها بالإبرة الطويلة ، و ..

« حذار يا (أنستازيا) .. »

انطلقت صيحة (أدهم) هادرة صارمة ، تخترق أذنى (أنستازيا) ، التى التفتت إليه فى حدة ، فاستطرد فى صرامة مخيفة :

- لو مسست شعرة واحدة من رأسها ، سأحطم كل عظمة من عظامك .

خفق قلب (جيهان) فى قوة ، وهى تتطلع إليه مشدوهة ..

وكادت تصرخ بكل قوتها :

- أنا أحبك يا (أدهم) .. أحب كل ما تفعله من أجلى .

كادت تصرخ بالعبارة بالفعل ، مع كل الانفعال الذى جاشت به نفسها ، عندما سمعته ينطق عبارته الأخيرة ، لولا أن قالت (أنستازيا) فى غضب :

- يا للوقاحة !.. كيف تهددنى بهذه الصفاقة وأنت أسيرى ؟!.. إننى أستطيع أن أفعل ما أريد .. سأفقأ عينيها أمامك ، ثم أفقأ عينيك أيضًا .. هل تفهم ؟

انعقد حاجباه فى غضب هائل ، وهو يقول :

- لقد حذرتك يا (أنستازيا) .

كانت لهجته شديدة الصرامة ، على نحو اعتدل له (شلينكو) ، وانعقد له حاجبا (إيفان) فى توتر ، فى حين انتفض جسد (أنستازيا) لحظة ، ثم لم يلبث ذلك الخوف الذى تسلل إليها أن استحال إلى غضب عنيف ، وهى تصرخ :

- فليكن أيها المصرى .. دعنا نر ما يمكنك فعله .

ثم التفتت إلى (جيهان) ، وصرخت وهى ترفع إبرتها عاليًا :

- هيا قولى وداعًا لعينيك أيتها الحقيرة .

وهوت بالإبرة الطويلة على عين (جيهان) .

* * *

فى كل المرات ، التى يواجه فيها (أدهم صبرى) خصومه ، تكون المفاجأة من نصيبهم حتمًا ..

وفى كل مرة ، يتصورون فيها أنهم قاب قوسين أو أدنى من النصر ، تنقلب الأمور فجأة رأسًا على عقب ..

ولو راجعنا ما حدث فى تلك الليلة ، لعرفنا ما يعنيه هذا ..

لقد كانت (أنستازيا) واثقة تمامًا من أن أحدًا لن يمكنه منعها من اختراق عين (جيهان) بإبرتها الطويلة ، ما دامت تقبض على رأس هذه الأخيرة بكل قوتها ، وتصوِّب إبرتها إلى عينها ، و (شلينكو) يقيِّد (أدهم) فى إحكام ، و ...

وفجأة ، تحرَّك (أدهم) ..

تراجعت رأسه فى عنف وقوة ، لترتطم بأنف (شلينكو) ، الذى يقف خلفه مباشرة مرتين متتاليتين ، فتفجَّرت الدماء من أنف هذا الأخير ، وهو يصرخ :

- اللعنة !.. لقد باغتنى .

وقبل أن تكتمل عبارته ، أو حتى أولى كلماتها ، كان (أدهم) يندفع نحو (أنستازيا) ، ويثب ليركل الإبرة الطويلة من يدها ، وهى تصرخ :

- لا .. إبرتى .

وحاولت أن تندفع نحوه ، ولكن (جيهان) دفعت قدمها أمامها ، قائلة :

- إلى أين أيتها الحقيرة .

وفى نفس اللحظة ، التى سقطت فيها (أنستازيا) أرضًا ، كان (إيفان) يدير مسدسه نحو (أدهم) ، هاتفًا :

- حذار أن ..

ولكن (أدهم) انقض عليه كالصاعقة ، وانحنى متفاديًا رصاصته ، التى مرقت فوق رأسه مباشرة ، وواصلت طريقها لتخترق كتف (شلينكو) ، الذى سقط صارخًا فى ألم ، فى نفس اللحظة التى ركل (أدهم) فيها المسدس من يد (إيفان) ، ثم قفز إلى أعلى ، ودار حول نفسه بحركة مدهشة ، ليركل هذا الأخير فى أنفه بكل قوته ..

أما (جيهان) ، فقد اندفعت نحو (أنستازيا) ، وركلت وجهها فى قوة ، قبل أن تنهض ، وهى تقول ساخرة :

- كنت تقولين إن أحدًا لن يمنعك من اختراق عينى .

وانطلقت قدمها الأخرى بركلة ثانية ، فى مؤخرة عنق الروسية ، مستطردة :

- فلتطلقى علىَّ إذن اسم (لا أحد) .

فى نفس اللحظة ، سمعت (أدهم) يهتف بها :


دفع عصا السرعة بمرفقه ، وهو يقول :
ــ من حسن حظنا أنها من الطراز الآلى ..

ـ إلى السيارة يا (جيهان) .

التفتت إليه ، ورأت (إيفان) ملقى أرضًا ، ويحاول النهوض فى صعوبة ، وسمعت (شلينكو) يقول فى غضب :

ـ ستدفعان الثمن غاليًا .

انطلقت بأقصى سرعتها نحو السيارة المفتوحة ، ورأت (أدهم) يقفز إلى مقعد القيادة ، ويداه مقيدتان خلف ظهره ، فهتفت وهى تحتل المقعد المجاور :

ـ كيف يمكنك قيادة السيارة ؟

دفع عصا السرعة بمرفقه ، وهو يقول :

ـ من حسن حظنا أنها من الطراز الآلى ، ولن نحتاج إلى تغيير السرعات فى أثناء الانطلاق ، كما أن أصدقاءنا الروس كانوا كرماء ، وتركوا المحرك دائرًا .

قالها ، وضغط دوّاسة الوقود ، فاندفعت السيارة إلى الأمام ، و (جيهان) تسأل متوترة :

ـ لم أقصد هذا ، وإنما أقصد عملية توجيه السيارة .. كيف يمكنك التحكم فى عجلة القيادة ؟

فوجئت به ينحنى ليمسك عجلة القيادة بأسنانه ، مجيبًا :

ـ هكذا .

ارتفع حاجباها بدهشة كبيرة ، وهو ينطلق بالسيارة ، متحكمًا فى عجلة قيادتها بأسنانه ، وصاحت :

ـ مستحيل !.. لا أحد يمكنه القيادة هكذا .

لم تكد تتم عبارتها ، حتى شهقت فى قوة ، عندما برز (شلينكو) بغتة أمام السيارة ، وهو يصرخ :

ـ قلت : لن تنجحا فى الفرار أبدًا .

قالها ، وهو يصوّب مسدسه إليهما ، و ..

ويطلق النار .

* * *



٤ ـ الشرق والغرب ..

فرك (زورين) ، النائب الأوّل لرئيس المخابرات الروسية ، عينيه فى إرهاق ، وهو يستمع إلى (كوربوف) عبر الهاتف ، وهذا الأخير يقصّ عليه تفاصيل لقائه مع (ستيفان) ، حتى انتهى من روايته قائلًا :

ـ ولقد درست الأمر من كل الوجوه يا سيِّدى ، ولم أجد وسيلة واحدة لضمان عدم وجود نسخة إضافية من تلك الأسطوانة .

انعقد حاجبا (زورين) فى شدة ، وهو يقول :

ـ هذا صحيح يا (سيرجى) .. لا توجد وسيلة واحدة لضمان هذا .

ثم استغرق فى تفكير عميق ، فاحترم (كوربوف) صمته ، ولاذ بالصمت بدوره ، حتى طال الوقت ، فهمس فى حذر :

ـ ألديك فكرة ما يا سيِّدى ؟

غمغم (زورين) فى لهجة توحى بالشرود :

ـ ربّما .

ثم اكتسب صوته حسمًا مباغتا ، وهو يستطرد :
ـ ولكننا نحتاج إلى خمسة أيام ، قبل أن تصبح الرءوس النووية جاهزة للتسليم .
قال (كوربوف) فى دهشة :
ـ خمسة أيام ؟!.. ولكننى عملت فترة كمفتش على الأسلحة النووية ، وأعتقد أن ...
قاطعه (زورين) فى صرامة :
ـ خمسة أيام يا (سيرجى) .. أبلغ (ستيفان) هذا أننا نحتاج إلى خمسة أيام ، حتى يمكننا إتمام الصفقة .
قال (كوربوف) فى حذر :
ـ كما تأمر يا سيِّدى ، ولكن لماذا خمسة أيام بالتحديد ؟
أجابه (زورين) فى صرامة :
ـ ليس هذا من شأنك .. أبلغه فحسب .
انعقد حاجبا (كوربوف) فى ضيق ، وهو يقول :
ـ سأبلغه يا سيِّدى ، ولكننى لست أعتقد أنه سيقبل بهذا .
أجابه (زورين) :
ـ لو رفض الاقتناع ، أعطه رقم هاتفى ، وسنتفاوض على الصفقة مباشرة .

تضاعفت دهشة (كوربوف) ، الذى يعلم جيدًا أن رقم هاتف (زورين) من الأرقام التى تندرج تحت بند السرية المطلقة ؛ نظرًا لحساسية وخطورة منصبه ، ولكنه قال فى خفوت :
ـ كما تأمر يا سيِّدى .
أنهى (زورين) الاتصال ، وأسند ذقنه على سبَّابته وإبهامه ، وهو يفكِّر فى عمق ، فسأله مساعده (بوريس) فى اهتمام :
ـ أنت تحاول إضاعة الوقت يا سيِّدى .. أليس كذلك ؟
أومأ (زورين) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :
ـ هذه هى الوسيلة الوحيدة يا (بوريس) .. إننا نحتاج إلى أربعة أيام ، وبعدها تصبح تلك الأسطوانة عديمة القيمة ، ولا يعود باستطاعةأى مخلوق ، حتى (بوريس يلتسن) نفسه ، أن يمنع الخطة من المضى قدمًا ، وتحقيق النجاح المنشود ، مهما كان كم المعلومات ، التى يحصل عليها ..
وتنهَّد فى عمق ، وهو يلقى نظرة على عقارب الساعة الكبيرة ، المعلَّقة على جدار مكتبه ، قبل أن يضيف فى حسم :

ـ إنها مسألة وقت يا (بوريس) .
قالها وعيناه تتابعان عقارب الساعة ، وهما يلتهمان الوقت ..
ويلتهمانه ..
ويلتهمانه ..

* * *

من المؤكد أن (أدهم صبرى) يكره القتل وإراقة الدماء ..
ولكن من المؤكّد أيضًا أن يضطر إلى اللجوء إليهما أحيانًا ، إذا ما حتمت ظروف الموقف هذا ..
وعندما اعترض (شلينكو) طريق السيارة ، وأطلق رصاصاته نحوها ، لم يكن أمام (أدهم) بديل ..
لقد صاح بزميلته الجديدة (جيهان) :
ـ اخفضى رأسك .
ثم ضغط دوّاسة الوقود بكل قوته ، وهو يدير عجلة القيادة بأسنانه ، وينطلق بأقصى سرعة نحو الروسى ..
واتسعت عينا (شلينكو) فى ارتياع ، وحاول القفز جانبًا ، وهو يصرخ فى شراسة :
ـ أيها الـ ...
وقبل أن يتمّ صيحته ، ارتطمت به السيارة ..

وكان الارتطام عنيفًا إلى حد مخيف ، حتى أنه انتزع الروسى من مكانه ، وألقاه عاليًا فى الهواء ، ليرتطم بسقف السيارة ، وجزء من زجاجها الأمامى ، ثم يتدحرج على السقف ، ويسقط وسط الغابة فى عنف ..
ولم يتوقّف (أدهم) ..
لقد واصل انطلاقه بالسيارة ، عبر الأشجار المنتشرة فى كل مكان ، و (جيهان) تهتف فى حماس :
ـ لقد قتلته .. أليس كذلك ؟
انعقد حاجبا (أدهم) ، وهو يقول :
ـ لست أدرى ، وهذه الأمور لا تثير فى نفسى أى شعور بالزهو .
ثم انحرف إلى منطقة كثيفة الأشجار ، وضغط فرامل السيارة ، قبل أن يلتفت إلى (جيهان) ، قائلاً :
ـ استديرى ، ودعى قيودك فى متناول يدى .
أطاعته بسرعة ، فالتقط قيودها من خلف ظهره ، وراح يعالجها فى حنكة ، وهى تقول مبهورة :
ـ لن يمكننى نسيان هذا الموقف أبدًا .. لقد قدت السيارة بأسنانك .. لم أشاهد أحدًا يفعل هذا قط .. المفروض أن تسجّل هذا باسمك .
ابتسم ، وهو يعالج قيودها ، قائلاً :

ـ يؤسفنى أن أحبطك يا عزيزتى ، ولكننى لست صاحب السبق فى هذا المضمار ، ففى عام ألف وتسعمائة وسبعة وثمانين ، قاد لص أمريكى سيارة الشرطة بأسنانه ، وثلاث سيارات تطارده ، لمسافة عشرين كيلو مترًا(*)

هتفت :

ـ حقًا ؟!

ومع هتافها ، انحلت قيود معصميها دفعة واحدة ، فاستدارت إليه بسرعة ، وراحت تحل قيود معصميه ، وهى تقول :

ـ من الواضح أنك تجيد الاستفادة بكل ما يمرّ بك .

أجابها فى حزم :

ـ هذه سمة رجل المخابرات الناجح يا زميلتى العزيزة .

خفق قلبها مرة أخرى ، مع سماعها لذلك اللقب ، وانتهت من حل قيوده فى اللحظة نفسها ، فالتفت إليها مبتسمًا ، وهو يغمغم :

ـ شكرًا لك .

(*) واقعة حقيقية ، نشرتها الصحف فى حينه .

تطلّعت إلى عينيه لحظة فى صمت ، ثم همست فى صوت متهدّج :

ـ (أدهم) .. إننى ..

كانت المرة الأولى ، التى تخاطبه فيها باسمه مجرّدًا ، فتطلّع إليها فى دهشة ، ولكنها تلعثمت ، وارتبكت ، وغمغمت :

ـ الواقع أننى .. أننى ..

عجز لسانها عن الاعتراف له بحبها ، بسبب طبيعتها الشرقية ، التى تمنع المرأة من الاعتراف بحبها للرجل الذى تعشقه ، مهما ذابت فى حمم هذا الحب ، ومهما تملّك من مشاعرها ..

ولكنه فهم ..

نظرة واحدة إلى عينيها ، جعلته يفهم على الفور ..

فهم ، و ...

« اللعنة !.. »

قطعت تلك الصرخة أفكارهما بغتة ، فى نفس اللحظة التى فتح فيها (شلينكو) باب السيارة المجاور لـ (أدهم) ، والدماء تغرق وجهه وصدره ، وانتزع هذا الأخير من مقعده إلى خارج السيارة ، مستطردًا فى ثورة :

ـ لا أحد يفعل هذا بـ (شلينكو) .. لا أحد .
وبسرعة ، ارتفعت فوهة مسدسه الآلى ، والتصقت بصدغ (أدهم) ، و ...
ودوت رصاصته فى المكان كله ..

* * *

« من الدب الأكبر إلى الفارس الفضى .. أجب يا رجل .. أجب .. »
ردّد الجنرال (تورنسول) هذا النداء ثلاث مرات متتالية ، عبر جهاز اتصال خاص ، قبل أن يهتف فى توتر شديد :
ـ لماذا لا يجيب ؟!.. لا هاتف السيارة يستجيب ، ولا جهاز الاتصال !.. ماذا أصابهم بالضبط ؟
ابتسم (كيلرمان) فى سخرية ، وهو يقول :
ـ ربما خرج (أدهم صبرى) من قبره ، وحطّم أنوفهم جميعًا .
التفت إليه (تورنسول) فى حدة ، وقال غاضبًا :
ـ هل تعتقد أن الموقف يتناسب مع سخريتك السخيفة هذه ؟
قال (كيلرمان) متهكمًا فى عصبية :
ـ سخرية ؟!.. ألم تستوعب الأمر بعد يا جنرال ؟!

ثم مال ناحيته ، مستطردًا فى حنق :
ـ لقد انهزم رجالك .. فريق الأسود ، الذى استوردته خصيصًا من الوطن تحطّم هنا ، على يد رجل مخابرات مصرى واحد .. ألا يبدو لك هذا واضحًا ؟
احتقن وجه (تورنسول) فى شدة ، وهو يقول :
ـ الأمور لا تسير بهذه البساطة يا (كيلرمان) .. هؤلاء الرجال من أفضل المحترفين لدينا ، ومن المستحيل أن ...
قاطعه (كيلرمان) فى عصبية :
ـ لقد قلتها يا رجل .. من المستحيل أن ... هذا هو السبب بالتحديد .. ألا تدرك أن الرجل الذى تواجهه يحمل هذا اللقب بالذات ؟.. لقب (رجل المستحيل) .. هل تفهم لماذا لقبوه بهذا ؟!.. لأنه ، وبكل بساطة ، يحطّم دائمًا حاجز المستحيل ، وينتصر عندما تتآزر العوامل كلها لهزيمته .. إنه حالة خاصة يا رجل .. حالة يستحيل على من هم مثلك استيعابها وفهمها .
هتف (تورنسول) فى حدة :
ـ ماذا أصابك يا (كليرمان) ؟!.. هل ألقى ذلك المصرى الرعب فى قلبك ، حتى صرت انهزاميًا يائسًا إلى هذا الحد ؟

أجابه (كيلرمان) فى غضب :

- بل زرع الموت فى قلوب أسودك يا جنرال ، وأزاح فريقهم المدهش عن طريقه فى ساعات معدودة .

انعقد حاجبا (تورنسول) فى شدة ، وهو يقول :

- لا يمكن لشخص ما .. أى شخص ، مهما بلغت قوته وقدراته ، أن ينتصر إلى الأبد .. لكل جواد كبوة يا رجل .

قال (كيلرمان) فى سخرية عصبية :

- إذن فما زلت تصرّ .

أجابه الجنرال فى صرامة :

- بالتأكيد .. ولتعلم أننى ، ومنذ هذه اللحظة ، لم يعد لدى فى الحياة سوى هدف واحد .. أن أقضى على ذلك المصرى ..

وارتجفت الكلمات على شفتيه فى غضب هادر ، ومقت بلا حدود ، وهو يضيف :

- وبأى ثمن ..

* * *

من المؤكد أن ظهور (شلينكو) هذه المرة ، كان مفاجأة حقيقية لـ (أدهم) بعد أن صدمه بالسيارة ، وأطاح به على النحو السالف ذكره ..

والحق أن الأمر مدهش بالفعل ..

من أى شىء صنع الروس رجلهم هذا ؟!..

كيف أمكنهم أن يتجاوزوا به القدرات البشرية الطبيعية ، على هذا النحو ؟!..

لقد كانت الصدمة من القوة ، بحيث تكفى لقتل رجل عادى ، إلا أنها ، ولسبب ما ، لم تنجح فى إيقاف (شلينكو) !!..

ولكن من حسن الحظ ، أنه حتى عامل المفاجأة ، لا ينجح أبدًا فى تحطيم سرعة استجابة (أدهم) ، ولا قدرته على التفكير والتدبير السريع ..

لقد رأى مسدس (شلينكو) الآلى يرتفع نحو رأسه ، وشعر بفوهته الباردة تلتصق بصدغه ، فصرخ عقله معلنًا حالة الطوارئ ، وانطلقت منه إشارة عاجلة إلى أطرافه ، فاستجابت بسرعة مذهلة ، وارتفع ساعده الأيسر يضرب يد (شلينكو) ، ويزيح فوهة مسدسه بعيدًا ، فى نفس اللحظة التى انطلقت فيها قبضته اليمنى كالقنبلة ، وهوت على أنف هذا الأخير ..

ودوت رصاصة الروسى ، فى المكان ، ولكنها انطلقت فى الفراغ ، وغاصت فى جذع شجرة كبيرة ، قبل أن يسقط مسدسه ..

ولكن الرجل لم يسقط ..

كانت قدرته على الاحتمال مذهلة بحق ، حتى أن لكمة (أدهم) هشَمت أنفه تمامًا ، إلا أنها لم تسقطه ، بل غمرت وجهه بالدم ، وأثارت المزيد من شراسته ووحشيته ، فرفع (أدهم) عاليًا بيديه ، وهو يصرخ :

ـ سأقتلك أيها المصرى .. سأسحقك سحقًا .

ثم ألقاه بكل قوته ، ليرتطم بجذع شجرة أخرى ، ويسقط أرضًا ..

وفى نفس اللحظة ، انقضَت عليه (جيهان) ..

لقد وثبت تدور حول نفسها ، وركلته بكل قوتها فى مؤخرة عنقه ، صائحة :

ـ ما دمنا نتحدَث عن السحق ، خذ هذه كبداية .

دفعت الركلة (شلينكو) إلى الأمام ، ولكنه استدار إليها فى ثورة عارمة ، وهو يصرخ :

ـ خذى أنت هذه كنهاية .

وتشابكت أصابع كفيه ، ليهوى على وجهها بقبضتيه المضمومتين ، بكل غضبه وثورته وقوته ..

ويبدو أنها كانت أقوى ضربة تلقتها فى حياتها كلها ..

لقد انتزعتها من مكانها ، وهى تطلق صرخة ألم

قوية ، وألقتها ثلاثة أمتار كاملة إلى الخلف ، لتسقط وسط منطقة كثيفة العشب ، وتفقد وعيها على الفور ..

وفى غضب هادر ، صرخ (أدهم) :

ـ أيها الوغد الحقير .

وانقضَّ على (شلينكو) كأسد ثائر ، حتى أن هذا الأخير تراجع فى خوف حقيقى ، لأوَّل مرة فى حياته ، مع تلك النظرة الغاضبة الصارمة ، التى قفزت من عينى (أدهم) ، وارتطمت بكيانه كله فى عنف ..

كان مرأى الروسى ، وهو يلطم (جيهان) ، قد فجَّر فى أعماق (أدهم) غضبًا بلا حدود ، أضاف لقوته قوة جديدة هائلة ، تجمَّعت فى قبضتيه ، وهو يهوى فى فك (شلينكو) بيمناه ، قائلاً :

ـ أى رجل أنت يا هذا ؟

ثم انطلقت يسراه فى أنف الروسى المحطَّم ، مستطردًا :

ـ الرجل الحق لا يضرب امرأة .

وعادت يمناه تنفجر فى فكه ، متابعًا :

ـ مهما كانت الأسباب .

لم يكن من الممكن أن يستوعب الروسى هذا المنطق ، الذى يستند إلى تقاليد فروسية عريقة ، لم

يعهدها موطنه قط ، منذ تفتّحت عيناه على الدنيا ، ولكنه استوعب بسرعة قوة لكمات (أدهم) ، التى بدت له ، فى هذه المرة بالذات ، وكأنها تضاعفت بشدة ، وأصبحت مؤلمة للغاية ، وسريعة على نحو مذهل ، فصرخ :

- لا أحد يفعل هذا بـ (شلينكو) .

وهوى على فك (أدهم) بلكمة عنيفة ، تفاداها هذا الأخير بانحناءة سريعة رشيقة ، قبل أن تغوص قبضته اليسرى فى معدة الروسى كمطرقة هائلة من الصلب ، انقبضت لها بطنه كلها ، حتى كادت روحه تثب عبر حلقه ، وهو ينثنى إلى الأمام فى ألم ، فاستقبلته قبضة (أدهم) اليمنى فى فكه كقنبلة ، انفجرت بدوى مكتوم ، وهى تنتزعه من مكانه ، وتلقى به إلى الخلف ، ليرتطم بالسيارة ، ويسقط أرضًا ..

ومع سقطته ، لمست يده مسدسه ، الذى فقده منذ قليل ..

وبكل قوته ، قبض (شلينكو) على مسدسه ، صارخًا :

- خسرت أيها المصرى .

وهبّ واقفًا على قدميه فى نشاط مدهش ، وكأنه لم

يتلق طنًا من اللكمات منذ لحظات ، وصوّب مسدسه إلى (أدهم) ..

وضغط الزناد ..

ولكن (أدهم) أيضًا كان يتحرك بسرعة مذهلة ..

لقد رأى مسدس الروسى مصوّبًا نحوه ، فوثب يركله فى قوة ، قبل أن تنطلق رصاصته ..

ومع قوة الركلة ، وتشبث (شلينكو) بمسدسه ، مالت يده إلى الخلف فى حركة حادة ، وسبّابته تعتصر الزناد ، و ...

وانطلقت الرصاصة ..

وجحظت عينا الروسى فى شدة ..

لقد كان ميل يده أكبر مما ينبغى ، حتى أن الرصاصة انطلقت من المسدس ، لتخترق وجهه ، وتحطّم ثلاثة من أسنانه ، قبل أن تمضى فى طريقها إلى جمجمته ، وتمزّق مخه فى قسوة ، وتواصل طريقها إلى خارج رأسه ، منتزعة معها محرّكه الرئيسى ..

روحه ..

وتفجّرت الدماء من موضعى دخول وخروج الرصاصة ، فى جمجمة (شلينكو) ، الذى ترنّح لحظة ، ثم هوى جثة هامدة ، تحت قدمى (أدهم) ..



ومع قوة الركلة ، وتشبث (شلينكو) بمسدسه ، مالت يده إلى الخلف فى حركة حادة ..

وقبل أن ترتطم جثته بالأرض ، شعر (أدهم) بتلك الحركة خلفه ..

ثم هوت ضربة عنيفة على مؤخرة عنقه ..

وأظلمت الدنيا كلها فى لحظة واحدة ..

لقد باغته (إيفان كينسكى) بتلك الضربه ، مستغلاً انهماكه فى القتال مع (شلينكو) ..

وعندما سقط (أدهم) فاقد الوعى ، صوّب (إيفان) مسدسه إليه ، وهو يصرخ فى غضب :

ـ لقد قتل (شلينكو) .. هذا الوغد قتل (شلينكو) .

كان يهمّ بنسف رأس (أدهم) برصاصته ، عندما أمسكت (أنستازيا) معصمه ، وأزاحت يده بعيدًا فى حدة ، وهى تقول :

ـ لا .. ليس هكذا .

صاح فى حنق :

ـ ولكنه قتل (شلينكو) .

أجابته فى صرامة :

ـ وسيدفع الثمن .

ثم ألقت نظرة على (أدهم) الفاقد الوعى ، ورفعت أحد حاجبيها الجميلتين ، وهى تضيف فى لهجة عجيبة ، جمعت مزيجًا من اللهفة والشراسة :

- ولكن بوسيلة أكثر بطئًا وأناقة .

أعاد (إيفان) مسدسه إلى حزامه ، وهو يقول فى عصبية :

- وماذا لو نجا منها ، كما حدث من قبل ؟

ابتسمت فى وحشية ، وهى تقول :

- عندما تصنع (أنستازيا) قبرًا لرجل ما ، فلن يمكنه الخروج منه قط .

وعادت ترفع حاجبها ، مستطردة :

- وخاصة لو كان قبرًا من الثلج .

واتسعت ابتسامتها ، التى حملت الكثير من الغموض ، و ...

ومن رائحة الموت .

* * *



٥ - قبر من ثلج ..

انعقد حاجبا (ستيفان) فى شدة ، وهو يحدّق فى وجه (كوربوف) طويلاً ، قبل أن يقول فى حدة :

- أأنت جاد يا مستر (كوربوف) ، أم أن هذه أسخف دعابة سمعتها فى حياتى كلها ؟!.. أنتم تحتاجون إلى خمسة أيام كاملة لإتمام الصفقة ؟!.. هل تصوّرتمونى غبيًا إلى هذا الحد ، حتى تأتى لزيارتى فى الثالثة صباحًا ، لتخبرنى أن المخابرات الروسية تحتاج إلى خمسة أيام كاملة ، للحصول على بضعة رءوس نووية ؟!

أجابه (سيرجى كوربوف) فى برود مستفز :

- هذا كل ما لدى يا مستر (ستيفان) .

صاح (ستيفان) فى وجهه بغضب :

- خطأ يا سيِّد (كوربوف) .. خطأ .. محاولتكم هذه هى أكبر خطأ تقعون فيه ، فى مفاوضاتكم معنا .. لن يمكنكم خداعنا قط ، ولسنا مضطرين لاحتمال سخافاتكم أبدًا .. الأمريكيون يقفون عند بابنا ، ويعلنون استعدادهم لدفع مليار ونصف المليار من الدولارات ،

مقابل تلك الأسطوانة المدمجة ، وما تحويه من معلومات ، وأنتم تسعون لخداعنا بكل هذه السذاجة .. كيف تصوَّرتمونا ؟!

صمت (كوربوف) تمامًا ، طوال صياح (ستيفان) الغاضب ، ثم انعقد حاجباه فى صرامة ، قائلاً :

ـ اسمع يا (ستيفان) .. لقد أخبرتك ما لدى ، وهذه أقصى حدود قدراتى على التفاوض .. لو أن هناك المزيد ، تفاوض مع رئيسى مباشرة .

تراجع (ستيفان) فى دهشة ، قائلاً :

ـ رئيسك ؟!

أجابه (كوربوف) فى حزم ، وهو يدفع إليه ورقة صغيرة :

ـ هذا رقم هاتفه الخاص .. لقد سمح لى بمنحك إياه .. اتصل به الآن لو أردت ، وسيتفاوض معك مباشرة .

حدَّق (ستيفان) فى وجهه بدهشة بضع لحظات ، قبل أن ينعقد حاجباه ، ويقول فى بطء ، متفرسًا فى ملامحه ، وكأنه يحاول أن يستشف ما يخفيه فى أعماقه من مشاعر أو أسرار :

ـ هل اعتاد رئيسك التفاوض مباشرة ، فى مثل هذه الأحوال ؟

شعر (كوربوف) بحنق للسؤال ؛ إذ أنه يدرك جيدًا أن هذا الإجراء غير طبيعى ، وأنه يتجاوز بالفعل كل الأعراف والقواعد ، المتبعة فى عالمه ، ولكنه قال فى صرامة :

ـ ليس هذا من شأنك .

ثم نهض ، مستطردًا فى حدة :

ـ لقد حصلت على الرقم .. أجر مفاوضاتك بنفسك ، واعفنى من سماع صوتك القبيح هذا بعد الآن .

قالها ، واندفع يغادر المكان فى خطوات واسعة متوترة ، فتابعه (ستيفان) ببصره صامتًا ، قبل أن يغمغم فى حيرة :

ـ عجبًا !.. الروس يتجاوزون تقاليدهم العتيقة .. إنها مبادرة مدهشة من إناس مثلهم ، وهذا يعنى أن الأمر بالغ الأهمية والخطورة بالفعل ، وأنهم غير مستعدين لخسارته أبدًا .

وعاد إلى صمته بضع لحظات ، وهو يتطلَّع إلى الورقة التى تركها (كوربوف) ، والتى تحمل رقم الهاتف الخاص لـ (زورين) فى (موسكو) ، قبل أن يتمتم :

ـ وليس لدينا أيضًا ما نخسره .

ثم التقط الورقة ، واتصل بالرقم المدوَّن بها ، ولم تمض بضع لحظات على رنين الهاتف ، على الجانب الآخر ، حتى سمع صوت (زورين) يقول :

- من المتحدِّث ؟

أجابه (ستيفان) فى حذر :

- (ستيفان) ، من (جنيف) .

هتف (زورين) فى حماس :

- آه .. مستر (ستيفان) .. كيف حالك ؟.. إننى أنتظر محادثتك هذه منذ ساعة كاملة .

استرخى (ستيفان) فى مقعده ، واكتسب الكثير من الثقة ، وهو يقول :

- هذا واضح يا مستر (زورين) .. إنك تجلس فى مكتبك ، فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، وهذا يعنى الكثير .

ضحك (زورين) ، وهو يقول :

- الوقت عندنا يختلف عنده عندكم يا مستر (ستيفان) (*) ، ولكننى بالفعل أنتظر محادثتك فى شغف .

(*) يختلف التوقيت من مكان إلى آخر فى العالم ، طبقًا لموقع هذا المكان من خطوط الطول ، التى يتم قياسها نسبة إلى خط زوال مرصد (جرينتش) فى (لندن) ، الذى اتخذ أساسًا للقياس فى عام ١٨٨١ م ، لأسباب ملاحية وحسابية .

اكتسى صوت (ستيفان) بصرامة مباغتة ، وهو يقول :

- هل تحاولون خداعنا يا مستر (زورين) ؟

أجابه (زورين) فى هدوء شديد ، وكأنه يتوقَّع هذا :

- خداعكم ؟!.. من قال هذا يا مستر (ستيفان) ؟

أجابه (ستيفان) فى غضب :

- رجلكم (كوربون) أخبرنى منذ لحظات أنكم تحتاجون إلى خمسة أيام كاملة ، لتسليمنا الصواريخ ذات الرءوس النووية .

قال (زورين) بنفس الهدوء :

- هذا صحيح .

هتف (ستيفان) محنقًا :

- ماذا تعنى بأنه صحيح يا مستر (زورين) ؟!.. كلنا نعلم أنكم مازلتم القوة الأولى فى (روسيا) ، على الرغم من ..

قاطعه (زورين) فجأة فى حزم :

- هل تعرف محتويات الأسطوانة يا مستر (ستيفان) ؟

صمت (ستيفان) لحظة ، وكأنما باغته السؤال ، ثم أجاب فى توتر :

- نعم .. لقد طالعتها مرة واحدة .

أجابه (زورين) فى حزم :
- إذن فأنت تعلم جيدًا أننا لا نتحرك بمباركة الحكومة هذه المرة ، وإنما نمضى ضد سياستها المعلنة ، وهذا يعنى أنه لو استشف المسئولون هنا ما نفعله ، سيفسدون الصفقة كلها ، ولن تنالوا صاروخًا واحدًا ، يحمل رأس بهلوان ، وليس رأسًا نوويًا .
صمت (ستيفان) تمامًا ، وقد صدمته هذه الحقيقة ، وشاركه (زورين) صمته بضع لحظات ، قبل أن يتابع فى صرامة .
- وهذا يعنى أيضًا أننا نحتاج إلى بعض الوقت ، لإتمام هذه الصفقة ..
وصمت لحظة أخرى ، ثم أضاف فى خبث :
- لو أنكم ترغبون فى إتمامها حقًا .
جاءت عبارته الأخيرة فى موضعها تمامًا ، وأصابت كبد الموقف ، فلاذ (ستيفان) بالصمت طويلاً ، قبل أن يقول فى لهجة ، فقدت الكثير من صرامتها :
- ومن يضمن لنا أنها ليست محاولة لإضاعة الوقت ؟
ابتسم (زورين) فى خبث ، وهو يقول :
- راجع الخطة لديك يا مستر (ستيفان) ، وستدرك

أننا نحتاج إلى أسبوعين كاملين لتنفيذ خطتنا ، وكل ما أطلبه منك لا يتجاوز الأيام الخمسة فحسب .
عاد (ستيفان) إلى صمته بضع لحظات أخرى ، قبل أن يغمغم :
- أعتقد أننى بحاجة إلى بعض الوقت يا مستر (زورين) ، قبل اتخاذ قرار فى هذا الشأن .
قال (زورين) فى حماس :
- خذ كل ما تحتاجه من الوقت يا مستر (ستيفان) ، وأنا فى انتظار ردك .
وأنهى الاتصال ، وهو يبتسم فى سخرية ، مغمغمًا :
- نعم .. خذ كل ما تحتاجه من الوقت يا (ستيفان) .
وألقى نظرة على عقارب ساعتة الكبيرة ، قبل أن يضيف فى خبث :
- فهذا كل ما نحتاج إليه أيضًا .
واتسعت ابتسامته الساخرة الخبيثة ..
اتسعت كثيرًا ..

* * *

ألقى (ريتشارد كيلرمان) نظرة على ساعته ، التى أشارت عقاربها إلى الخامسة والربع صباحًا ، وهو يوقف سيارته فى طريق مهجور ، خارج مدينة

(جنيف) ، ويقول للجنرال (تورنسول) فى شىء من الجذل والارتياح

- عشر دقائق أخرى ، وتصل الشاحنة .

قال الجنرال فى حنق :

- لست أدرى لماذا اللجوء إلى هذه الأساليب المعقدة ؟!.. كان من الممكن أن تهبط الطائرة فى مطار (جنيف) مباشرة ، بدلاً من هبوطها فى طريق قديم مهجور ، كما يفعل المهربون .

ابتسم (كيلرمان) ، قائلاً :

- وصول شاحنة كهذه ، فى وقت كهذا ، كفيل بإثارة عاصفة من الشك والتساؤل يا عزيزى الجنرال ، ثم أنه من العسير أن تفسّر للمسئولين ورجال الجمارك ، إقدامك على إحضار مليار ونصف المليار من الدولارات نقدًا ، من (أمريكا) إلى (جنيف) .

قال الجنرال فى توتر :

- كان بإمكانكم استقدام هذا المبلغ عن طريق الحقيبة الدبلوماسية ، وأنت تعلم مثلى أن القانون يمنع تفتيشها ، مهما بلغ حجمها .

أشار (كيلرمان) بسبّابته ، قائلاً :

- إلا فى حالة الشك ، ففى هذه الحالة يسمح القانون

الدولى باستدعاء مندوب من السفارة ، وفتح الشحنة الدبلوماسية فى وجوده ، واتخاذ الإجراءات القانونية ضدها ، لو أنها تخالف القوانين العامة (*) ، وهذا يعنى أنه حتى الحقيبة الدبلوماسية إجراء غير مضمون العواقب ، فى مثل حالتنا .

قال الجنرال فى حدة :

- وهل التهريب إجراء مضمون العواقب ؟

لوّح (كيلرمان) بيده ، قائلاً :

- لقد درسنا الأمر جيدًا ، واخترنا موقع الهبوط بمنتهى الدقة ، وبعد ست دقائق فحسب ستصل الشحنة ، وبعد إفراغها مباشرة ستقلع الطائرة ، ثم تصل إلى هنا ثلاث شاحنات ، لتحمل النقود إلى فيلا (ستيفان) ، حيث نتمّ الصفقة ، ونحصل على تلك الأسطوانة المدمجة .

تنهّد (تورنسول) مغمغمًا في ضيق :

- كل شىء يتم بأساليب معقدة ، من أجل أسطوانة كمبيوتر لعينة .

استرخى (كيلرمان) فى مقعده ، وهو يراقب السماء ، مغمغمًا :

(*) حقيقة .

ـ ليست أسطوانة عادية يا جنرال .. إنها أسطوانة مدمجة ، تحوى تفاصيل أعقد خطة فى التاريخ ، لاستعادة المجد الشيوعى الزائل ، ألا يستحق الأمر أن نبذل من أجله قصارى جهدنا .

هزّ (تورنسول) كتفيه ، قائلا :

ـ هذا شأنكم .. إننى لم أعتد التعامل فى مثل هذه الأمور المعقّدة .. إننى لم أكن أعلم حتى أن هذه الأسطوانات المدمجة يمكن نسخها .

ابتسم (كيلرمان) ، قائلاً :

ـ كان هذا فيما مضى ، حتى ابتكرت شركة (سونى) نظامًا حديثًا ، جعل هذه الاسطوانات قابلة للتسجيل والنسخ والاستعادة (*) .

مطّ (تورنسول) شفتيه ، قائلاً :

ـ هذا لا يعنينى كثيرًا ، فمهمتى تقتصر على تدريب وقيادة فرق القوات الخاصة ، التى يبدأ عملها عندما يفشل عملكم .

تطلّع إليه (كيلرمان) فى سخرية ، قائلاً :

ـ حقًا ؟!

(*) ابتكرت شركة (سونى) (Sony) اليابانية هذا النظام فى أوائل عام ١٩٩٤ م ، وتم طرحه فى الأسواق فى منتصف العام نفسه .

انعقد حاجبا (تورنسول) فى غضب ، وهو يهتف :

ـ نعم .. حقًا يا (كيلرمان) .. منذ ربع القرن وقواتنا الخاصة تنجح فيما تفشلون فيه ، وتحسم العديد من المواقف ، التى لم يمكنكم حسمها ، ولو أنها فشلت مرة ، فهذا لا يعنى أنها فاشلة أبدًا .. إنها مسألة حظ فحسب . قال (كيلرمان) فى سخرية أكبر :

ـ حظ ؟!.

احتقن وجه (تورنسول) كله ، وهمّ بقول شىء ما ، عندما اعتدل (كيلرمان) فجأة ، وأشار إلى السماء ، قائلاً فى انفعال :

ـ ها هى ذى .

رفع (الجنرال) عينيه إلى السماء بدوره ، ورفع بصره على الطائرة ، التى تطير على ارتفاع منخفض ؛ لتفادى أنظمة الرادار ، والتى بدأت فى الهبوط ، فوق الطريق المهجور ، فألقى (كيلرمان) نظرة أخرى على ساعته ، وابتسم فى ارتياح ، مغمغمًا :

ـ فى الموعد بالتحديد .

هبط قائد الطائرة بها ، فوق الطريق المهجور ، ببراعة مدهشة ، ولم يكد يوقف محركاته ، حتى اندفع نحوه (كيلرمان) ، وقال فى حماس :

- أحسنت يا رجل .. أنت تستحق وساما على براعتك هذه .

ابتسم الطيّار فى سخرية ، قائلاً :

- ألا يمكننى استبداله بمكافأة مالية ؟

قهقه (كيلرمان) ضاحكا ، وهو يقول :

- سؤالك يؤكد أنك رجل يصلح لهذا الزمان .

ثم تلاشت ضحكته بسرعة ، مع الجدية التى ارتسمت على ملامحه ، وهو يسأل فى اهتمام شديد :

- هل أحضرت الشحنة ؟

أشار الرجل إلى جسم الطائرة ، قائلاً :

- بالطبع .. عشرة صناديق كبيرة ، تحمل عبارة (سرى للغاية) .

انعقد حاجبا الجنرال فى ضيق ، فى حين ظهرت الشاحنات عند نهاية الطريق ، فابتسم (كيلرمان) فى ارتياح ، وهو يقول :

- عظيم .. كل شىء يسير وفقا للجدول .. سنفرغ الشحنة ، ثم نغادر هذا المكان على وجه السرعة يا رجل .

جلس الجنرال و (كيلرمان) فى سيارة هذا الأخير ، يراقبان عملية تفريغ الشحنة من الطائرة ، ونقل

الصناديق الكبيرة إلى الشاحنات الثلاث ، وقال الأول فى حنق :

- أشعر بغضب حقيقى ؛ لأننا سنضطر إلى دفع مثل هذا المبلغ الهائل ، لمنظمة تجسسية خاصة ، مقابل أسطوانة مدمجة حقيرة .

أشعل (كيلرمان) سيجارته ، ونفث دخانها فى هدوء ، وهو يقول :

- قلت لك : إنها ليست مجرد أسطوانة عادية يا جنرال .. ثم أن هذه النقود لا ينبغى أن تثير حزنك ، فهى نقود عملية (مونتانا) .

التفت إليه الجنرال ، وهو يقول فى حدة :

- نقود (مونتانا) .. نقود (مونتانا) .. إنك تكرر هذا القول فى سخافة ، دون أن تشرح لى ما يعنيه !.. لماذا لا ينبغى أن تثير نقود (مونتانا) هذه حزنى ؟!.. هل لك أن تشرح لى ؟

ابتسم (كيلرمان) ، وعاد ينفث سيجارته ، وهو يقول :

- بالطبع يا جنرال .. من الضرورى أن أشرح لك الأمر .

وعندما بدأ يشرح قصة نقود عملية (مونتانا) ، اتسعت عينا الجنرال فى دهشة ..

دهشة بلا حدود ..

* * *

انعقد حاجبا (سيرجى (كوربوف) فى مزيج من الغضب والصرامة ، وهو يستقبل (إيفان) و (أنستازيا) ، فى منزلهم الآمن ، فى الخامسة والنصف صباحًا ، وقال فى حدة واضحة ، قلمّا تتسلل إلى لهجته الجافة :

ـ أين كنتما ؟!.. وأين (شلينكو) ؟.. ألا تدركان أنه من المحظور عليكما القيام بأية ارتباطات عاطفية ، أثناء مهمة سرية كهذه ؟!.. من حقى فى هذه الحالة أن ...

قاطعه (إيفان) بسرعة :

ـ رويدك أيها الرئيس .. رويدك .. إننا لم نكن نلهو أو نمرح .. والدليل على هذاأن (شلينكو) قد لقى مصرعه .

هتف (كوربوف) :

ـ ماذا ؟!.. وكيف حدث هذا ؟

انبرت (أنستازيا) ، قائلة فى بطء :

ـ قتله (أدهم صبرى) .

اتسعت عينا (كوربوف) ، وهو يقول فى انفعال :

ـ (أدهم صبرى) ؟!.. هل عثرتما عليه ؟!.. أين ؟.. وكيف ؟

أجابته فى شىء من البرود ، وهى تقلّم أصابعها فى هدوء :

ـ عميلنا فى جهاز الشرطة أخبرنا بوجود قلاقل ، فى منطقة البحيرات القديمة ، ومع شرحه لتلك القلاقل ، كما عبّرت عنها أصواتها وأضواؤها ، راودنا الشك فى أن لغريمنا (أدهم صبرى) يد فيها ، خاصة وقد علمنا أنه نجا بوسيلة ما من ذلك الفخ الثلجى ، الذى ألقيته فيه ، وأن الأمريكيين أيضًا يسعون خلفه بدورهم .

اندفع (إيفان) يقاطعها مكملاً :

ـ وهكذا انطلقنا إلى تلك المنطقة ، وعثرنا بالفعل على ذلك المصرى ، فاشتبكنا معه فى قتال عنيف ، قضى خلاله (شلينكو) مصرعه .

اعتدل (كوربوف) ، وهو يسأل فى اهتمام قلق :

ـ و (أدهم) .. ماذا عن (أدهم) ؟!

برقت عينا (أنستازيا) ، وهى تجيب فى بطء :

ـ كان من الضرورى أن يدفع الثمن .

اكتسح الانفعال صوت (كوربوف) ، وهو يقول :
ـ هل لقى مصرعه أيضًا ؟
تبادل (إيفان) و (أنستازيا) نظرة سريعة ، قبل أن يهزّ الأوّل كتفيه ، مجيبًا فى لهجة ملؤها الغموض :
ـ نعم ، ولا .
عاد حاجبا (كوربوف) ينعقدان ، وهو يقول فى حدة :
ـ أى جواب هذا ؟!.. هل لقى مصرعه أم لا ؟
أجابته (أنستازيا) فى سرعة :
ـ لقد أعدناه إلى قبره الثلجى .
ثم ابتسمت فى وحشية عجيبة ، وهى تضيف فى جذل :
ـ مع منحه فرصة للخلاص .
قالتها ، وانفجرت ضاحكة فى شراسة مخيفة ، دون أن تفصح عما يعنيه قولها الغامض هذا ..
كيف أعادته إلى قبره الثلجى ، مع منحه فرصة للخلاص فى الوقت ذاته ؟!..
كيف ؟!..

* * *

استعاد عقل (أدهم) وعيه فى بطء ، وبدأ جسده يشعر بالبرودة الشديدة المحيطة به ، والتى تسلّلت إلى كيانه ، وكادت تتجمّد لها أطرافه ، ففتح عينيه فى بطء ، وهو يغمغم فى خفوت شديد :
ـ أية برودة هذه ؟!
اصطدمت عيناه بغتة بظلام دامس ، يطبق عليه تمامًا ، وانتبه إلى ذلك الشىء ، الذى تقبض عليه أصابعه ..
كان فى يده مسدس كبير ، جعلته البرودة أشبه بقطعة من الثلج ، تقبض عليها أصابعه ، وتبعث فى جسده قشعريرة مثلّجة ، تضاعف إحساسه البارد بما حوله ..
وبسرعة ، راح عقله يعمل مع أطرافه ، لتحديد موقفه بالضبط ..
كان يرقد على ظهره ، داخل صندوق كبير ... تابوت على الأرجح ، وقد وضع أحدهم فى يده مسدسًا من طراز (بريتا) ، تحوى خزانته رصاصة واحدة ..
وهذا التابوت مدفون تحت الثلج ..
وأدرك (أدهم) موقفه على الفور ..
لقد منحوه هذه الرصاصة ، لينهى بها حياته بنفسه ،

إذا ما طال المقام داخل ذلك القبر ، الذى دفنوه فيه حيًا ..
القبر الثلجى ..
وبحسبة منطقية بسيطة ، أيقن (أدهم) أنه من المستحيل أن ينجو من مأزقه هذه المرة ، وأن حياته ستنتهى داخل قبر محكم ..
قبر من ثلج .

* * *





كان يرقد على ظهره ، داخل صندوق كبير ..

٦ - رائحة الموت..

لم تكن عقارب الساعة قد تجاوزت السادسة والربع صباحًا ، عندما ارتفع رنين جرس باب شقة (أشرف مجدى) ، الصحفى المصرى فى واحدة من أوسع الصحف السويسرية انتشارًا ، فهبَّ من فراشه ، وهو يقول متوترًا بالفرنسية :

ـ من بالباب ؟

ارتفع رنين الجرس مرة أخرى ، دون أن يتلقَّى جوابًا ، فالتقط معطفه المنزلى ، ووضعه على جسده ، وهو يقترب من الباب فى حذر ، مكرِّرًا :

ـ من الطارق ؟

أتاه الجواب بصوت أنثوى متوتر ، يقول بالعربية :

ـ هل عثرت على قلادتى ، التى فقدتها أمس ؟!.. إنها ذهبية مطعمة بالفضة .

انتبهت حواسه كلها ، وطردت النعاس عن رأسه فى سرعة ، وهو يقول بالعربية ، فى حذر أكثر :

ـ كلاً .. كل ما عثرت عليه هو حلق من الخشب والماس .

أجابه الصوت الأنثوى فى توتر أكثر :

ـ عظيم .. كنت أعلم أنك ستجد قلادتى المعدنية .

كان حوارًا يثير الدهشة ، ويوحى بأن صاحبيه معتوهان ، أو أنهما يمزحان معًا بأسلوب سخيف ، إلا أن تبادله على هذا النحو بالتحديد ، كان إشارة أدركها الطرفان ، وجعلت (أشرف) يفتح الباب فى سرعة ، ويلقى نظرة على (جيهان) ، التى بدت فى هيئة عجيبة ، بشعرها الأشعث ، وتلك الكدمة الواضحة فى فكها ، وهى تندفع داخل المنزل ، قائلة :

ـ أعطنى قطعة من الثلج ، فتلك الكدمة تفسد مظهرى تمامًا .

أسرع (أشرف) يحضر قطعة الثلج ، وهو يسألها فى اهتمام حذر :

ـ هل .. هل تعملين معنا ؟

وضعت قطعة الثلج على الكدمة ، قائلة :

ـ بل أنت الذى يعمل معنا يا أستاذ (أشرف) .. أنا من الطاقم الأساسى .

ارتفع حاجباه فى دهشة ، وهو يهتف :

ـ الطاقم الأساسى ؟!.. هل تعنين أن فاتنة مثلك يمكن أن تلتحق بالمخابرات المصرية ؟

تنهَّدت قائلة :

ـ أشكرك للمجاملة ، ولكن أرجو أن تتذكَّر أنـه من المحظور تمامًا الإشارة إلى الجهاز ، تحت أيـةَ مقاييس أو ظروف .

ارتبك (أشرف) ، وهو يقول :

ـ آه .. معذرة .. لم أكن أقصد أن ..

قاطعته بإشارة من يدها ، قائلة :

ـ لا عليك .. لا أحد سيعلم أنك فعلت .. كـل مـا أريده هو قدح من الشاى ، وهاتف يمكننـى التحدّث بوساطته إلى (القاهرة) .

أشار إلى الهاتف ، قائلاً فى حماس :

ـ يمكنك إجراء ما تشائين من محادثات ، وثقى بأن الهاتف غير مراقب ، إننـى أدفع الكثير من الرسوم ، للتيقُّن من هذا ، وسأعدّ الشاى على الفور .

غادر الحجرة بسرعة ، وأغلق بابها خلفه ، ليمنحها السرية المطلوبة ، وفقًا لما درَّبه عليه رجال المخابرات المصرية ، فـالتقطت هى سمّاعة الهاتف فـى لهفـة ، وطلبت رقم مكتب مدير المخـابرات مباشـرة ، وهـى تغمغم :

ـ أعلم أن الوقت لا يناسب هذا أبدًا ، ولكننى أتمنى من

كل قلبى أن تكون فى مكتبك الآن ، يا سيادة المدير .

خفق قلبها مع رنين الهاتف ، على الجانب الآخر ، ولكنها لم تكد تسمع صوت المدير ، حتى هتفت فى حرارة :

ـ حمدًا لله .. إنك فى مكتبك .

تعرَّف المدير صوتها على الفور ، فقال فى لهفة :

ـ أين أنت يا (جيهان) ؟!.. إننا ننتظـر هذا الاتصال منذ مساء أمس .. كيف تسير الأمور معك ومع (أدهم) ؟!

تنحنحت فى توتر ، وهى تجيب :

ـ كانت تسير على ما يرام يا سيِّدى ، ولكن ..

بترت عبارتها بغتة ، على نحو فجَّر فى أعماقـه قلقًا لا حدود له ، وهو يهتف :

ـ ولكن ماذا يا (جيهان)؟.. ماذا حدث بالضبط ؟..

التقطت نفسًا عميقًا ، ثم اندفعت تروى لـه كل مـا حدث ، منذ محاولة الاغتيال الزائفة ، وحتى مواجهتها مع الروس ، وعـودة (شـلينكو) المباغتـة ، بعـد أن صدمه (أدهم) بالسيارة ، ثم تابعت فى توتر شديد :

ـ ولقد لطمنى ذلك الروسـى بقوة مذهلـة ، حتى أنـه ألقانى ثلاثة أمتار تقريبًا إلى الخلف ، ولم أدر ماذا حدث بعدها ، ولكننى استعدت وعيى ، لأجد نفسى ملقاة وسط

أعشاب كثيفة ، حجبتنى عن الرؤية تمامًا ، وربما كان هذا هو السبب فى أننى بقيت على قيد الحياة ، فعندما نهضت ، عثرت على الروسى صريعًا ، وعلى آثار معركة عنيفة ، ولم يكن هناك أثر للسيارة ، ولا للعميد (أدهم) .

بدا صوت المدير متوترًا ، وهو يقول :

ـ ما دمت قد عثرت على الروسى قتيلاً ، فمن المحتمل أن يكون (أدهم) قد انطلق مسرعًا ، فى محاولة للحاق بسباق الـ ..

قاطعته فى عصبية :

ـ معذرة يا سيّدى ، ولكنه ما كان ليذهب بدونى .

صمت المدير تمامًا ، وهى تتابع فى توتر شديد :

ـ لو أن الأمر اقتصر على مصرع الروسى ، واختفاء العميد (أدهم) ، لكان من الطبيعى أن يبحث عنى ، ويحملنى إلى السيارة ، قبل أن يغادر المكان ، فأنت تعرف طبيعته أكثر منى يا سيادة المدير .. إنه ليس بالرجل الذى يتخلّى عن ... عن زملائه ، مهما كان الثمن .

تنهّد المدير ، قبل أن يتمتم :

ـ أنت على حق .

ثم استدرك فى قلق شديد :

ـ ما الذى تتصوّرين أنه قد حدث إذن ؟

ارتجفت الكلمات على شفتيها ، وهى تقول :

ـ أخشى أن كل التصوّرات المنطقية ليست فى صالح العميد (أدهم) .. ليست فى صالحه قط .

صمت المدير بضع لحظات ، ثم استعاد حزمه ، وهو يقول :

ـ فليكن يا (جيهان) .. سنمنح العميد (أدهم صبرى) ساعتين كاملتين ، حتى يتم تحديد موقفه ، فإما أن يظهر ، ويعود لاستكمال المهمة ، أو نضعه رسميًا فى عداد المفقودين ، ويكون عليك مواصلة المهمة وحدك ، حتى يصلك البديل ..

اغرورقت عيناها بالدموع ، وهى تغمغم :

ـ كما تأمر يا سيّدى .

وعندما أنهت الاتصال ، كانت الدموع تسيل بالفعل على وجنتيها ، وقلبها يبكى فى مرارة ، وعقلها يحمل سؤالاً واحدًا ..

تُرى أين (أدهم صبرى) الآن ؟!..

أين ؟!..

* * *

«الأمريكى (كنوبى) يطلب الإذن بالدخول .. »

استمع (ستيفان) إلى العبارة ، عبر جهاز المراقبة والاتصال الخاص ، وهو يشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، ويطالع الشاشات الثلاث أمامه ، والتى تنقل له كل ما يدور حول الفيلا ، وتطلّع فى اهتمام شديد إلى الشاحنات الثلاث ، التى تقف على مسافة عشرين مترًا من المدخل ، وغمغم فى خفوت :

ـ فليكن أيها الأمريكيون .. سنلعب لعبتكم حتى النهاية .

ثم ضغط زر الاتصال ، قائلاً :

ـ دعه يدخل مع رفيقه ، بعد مرورهما بأساليب الفحص المختلفة ، وأرسل عشرة رجال لفحص وتفتيش الشاحنات الثلاث ، ثم أدخلوها تحت حراسة مشدّدة إلى الحديقة ، وسأهبط لاستقبال كل شىء بنفسى .

وألقى نظرة أخرى على الشاشات ، ثم أجرى اتصالاً بعيد المدى ، وقال عبر سمّاعة الهاتف فى توتر :

ـ كل شىء تم كما توقّعت .. الأمريكى هنا مع زميل له ، وثلاث شاحنات تحمل المبلغ كله .

واستمع إلى محدّثه فى اهتمام بالغ ، وقد انعقد حاجباه فى شدة ، ثم لم يلبث أن قال فى خضوع :

ـ نعم .. سأنفذ الأوامر كلها .. نعم .

وأنهى الاتصال ، وهو يلتقط نفسًا عميقًا ، ثم التقط زجاجةً من زجاجات الفودكا ، وغمغم وهو يتجه إلى الباب :

ـ أعتقد أننا سنحتاج إليها ؛ لنقنع الأمريكيين بموقفنا .

وهبط فى هدوء إلى حديقة الفيلا ، حيث وقف (كيلرمان) و (تورنسول) إلى جوار الشاحنات الثلاث ، والأخير يغمغم متوترًا :

ـ هل تعتقد أنهم سيبتلعون الطعم ؟

أجابه (كيلرمان) ، وهو يشعل سيجارته فى هدوء واثق :

ـ اطمئن يا جنرال .. من غيرنا يعرف أمر نقود (مونتانا) ؟

التقط (تورنسول) نفسًا عميقًا ، وهو يقول :

ـ هذا ما أحاول إقناع نفسى به .

وصل (ستيفان) فى هذه اللحظة ، وهو يحمل زجاجة الفودكا ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة ، وهو يصافحهما قائلاً :

ـ مرحبًا يا مستر (كنوبى) .. مرحبًا يا زميل مستر

(كنوبى) .. أرى أنكما قد أحضرتما المبلغ كله .

لوَّح (كيلرمان) بسيجارته ، قائلاً بابتسامة كبيرة :

ـ كل دولار منه يا مستر (ستيفان) .. عشرة صناديق كبيرة ، تحوى أوراق نقد من فئة المائة دولار ، وكلها متداولة ، وغير مسجَّلة الأرقام .

رفع (ستيفان) حاجبيه ، فى دهشة تمثيلية مصطنعة ، وهو يقول :

ـ رائع .. هذا أمر يستحق الرؤية .. دعونا نلق نظرة على محتويات أحد هذه الصناديق .

أشار (كيلرمان) إلى الشاحنات الثلاث ، قائلاً :

ـ كن ضيفى ، ومتّع عينيك برؤية صناديق النقود .. صدقنى يا مستر (ستيفان) .. لا يوجد مشهد أجمل من المال .. تلك الأوراق الخضراء المنعشة .

ابتسم (ستيفان) ، وهو يقول :

ـ صدقت يا رجل .

ثم وثب يعتلى إحدى الشاحنات فى رشاقة ، وأشار إلى أحد رجاله ، قائلاً :

ـ افتح هذا الصندوق .

أسرع الرجل يفتح الصندوق ، وابتسم (ستيفان) فى هدوء ، وهو يتطلع إلى أكوام النقود المكدسة داخله ،

والتقط بعضها يلقى نظرة مقرِّبة عليه ، قبل أن يقول :

ـ أنت على حق يا مستر (كنوبى) .. لا يوجد مشهد أجمل من المال .

ثم فتح زجاجة الفودكا ، وراح يصبُّ محتوياتها على النقود ، فى مشهد اتسعت له عينا (تورنسول) ، وانعقد له حاجبا (كيلرمان) ، فى حين تابع (ستيفان) فى هدوء :

ـ ولكن هناك مشهد أكثر إثارة .

ثم أشعل قدّاحته ، وألقاها وسط الصندوق ، فاشتعلت الفودكا على الفور ، وراحت النقود تحترق ، وهتف (تورنسول) :

ـ ماذا تفعل يا رجل ؟

انعقد حاجبا (ستيفان) فى صرامة ، وهو يقول :

ـ لا داعى للتوتر يا صديق مستر (كنوبى) .. آه .. معذرة .. المفروض أن أخاطبه باسمه الحقيقى .

والتفت إلى (كيلرمان) ، مستطردًا فى حدة :

ـ أليس كذلك يا مستر (كيلرمان) ؟

انعقد حاجبا (كيلرمان) فى شدة ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فى حين قفز (ستيفان) من فوق الشاحنة ، وهو يتابع فى صرامة :

- قل لى يا زميل مستر (كيلرمان) : هل سمعت يومًا عن ميليشيات (مونتانا) ؟

قال (تورنسول) فى عصبية :

- اسمى الجنرال (تورنسول) ، وأنا أعرف ميليشيات (مونتانا) بالطبع ، بحكم عملى وموقعى .. إنها مجموعة من الإرهابيين ، الذين يتصوَّرون أنهم أصحاب حق فى تحقيق العدالة ، بأساليبهم المخالفة للقانون ، ولقد وصل بهم الأمر إلى إصدار عدد من الكتيبات ، التى تشرح للعامة كيفية صنع القنابل الزمنية ، وتدمير الأماكن والمنشآت (*)

أشار (ستيفان) بسبَّابته ، قائلاً :

- بالضبط .. تسعدنى سعة إطلاعك يا جنرال .. وسيسعدنى أكثر أن تكون على علم بتلك العملية الانتحارية ، التى نجحت خلالها ميليشيات (مونتانا) فى سرقة سبائك الطباعة الأصلية ، للأوراق المالية فئة المائة دولار ، وقامت بطبع مليارى دولار ، يصعب تمييزها عن الأوراق الحقيقية ، ولولا نجاح الشرطة الفيدرالية الأمريكية فى السيطرة على الموقف ، واستعادة تلك الأوراق المزيَّفة بإتقان مدهش ، لانتشرت العملات فى الأسواق ، وسبَّبت اضطرابًا شديدًا(**).

(*) حقيقة .

(**) واقعة حقيقية .

ازداد انعقاد حاجبى (كيلرمان) ، وهو يغمغم :

- مستر (ستيفان) .. دعنى أشرح لك ..

قاطعه (ستيفان) ، وهو يواصل حديثه ، وكأنه لم يسمعه :

- وعندما طلبنا مليارًا ونصف المليار من الدولارات ، من أصدقائنا الأمريكيين ، مقابل تسليمهم الأسطوانة المدمجة ، تصوَّروا أننا مجموعة من السذج أو الحمقى ، وقرَّروا إعطاءنا نقود (مونتانا) المزيَّفة ، والحصول على اسطوانتنا مجانًا .

قال (كيلرمان) فى توتر :

- الأمر ليس كذلك يا مستر (ستيفان) .. الواقع أننا .

قاطعه (ستيفان) بصيحة غاضبة ، وهو يلتفت إليه فى حدة :

- اصمت .

ثم اندفع يستطرد فى غضب :

- إنكم لم تتصوَّروا أن لنا عملاء فى (واشنطن) ، وفى مناصب حساسة وخطيرة للغاية ، وأن قيادة منظمتنا واعية ومنتبهة تمامًا .. لقد بلغتها خطتكم كلها ، وتلقَّيت أنا اتصالاً عاجلاً فى الفجر ، ينبهنى إلى

ما سيحدث ، ويضع لى تفاصيل الخطوات القادمة .

ألقى (كيلرمان) سيجارته فى عصبية ، وهو يقول :

ـ فليكن يا مستر (ستيفان) .. لقد أخطأنا فى محاولتنا هذه ، ولكنك تعلم أن كل شىء مشروع ، فى مثل هذه العمليات .. سنعيد النقود ، أو نحرقها لو أردت ، وسأتصل برؤسائى ، و ...

قاطعه (ستيفان) فى صرامة :

ـ معذرة يا مستر (كيلرمان) ، ولكن رؤسائى أنا قرّروا استبعادك من العملية تمامًا .

انعقد حاجبا (كيلرمان) فى شدة ، وهو يقول :

ـ رؤساؤك لا يملكون استبعادى من العملية يا هذا .. إننى ..

بتر عبارته بنفسه هذه المرة ، وخفق قلبه فى عنف ، عندما التقطت أذنه صوت إبرة مسدس ، سحبها أحدهم من خلفه تمامًا ، ورأى (ستيفان) يبتسم فى سخرية ، وهو يقول :

ـ هل تعتقد هذا ؟

حاول (كيلرمان) أن يتحرك فى سرعة ، و ...

ولكن الرصاصة سبقته ..

وارتجف جسد (تورنسول) فى عنف ، عندما شاهد

الرصاصة تخترق رأس (كيلرمان) ، وتنسفه نسفًا ، ليسقط الرجل جثة هامدة ، و (ستيفان) يقول فى لامبالاة :

ـ لقد استبعدوك بالفعل يا رجل .

ثم أدار عينيه إلى (تورنسول) ، مستطردًا فى صرامة :

ـ وستتولى أنت العملية يا جنرال .

ازدرد (تورنسول) لعابه فى صعوبة ، وهو يغمغم فى عصبية :

ـ لقد أخطأت بفعلتك هذه يا رجل .. ليس من السهل أن تقتل عميلاً أمريكيًا ، ويمضى الأمر فى سلام .

قال (ستيفان) فى حزم :

ـ سيمضى يا جنرال .. سيمضى .. اطمئن .. حاجة رؤسائك إلى تلك الأسطوانة المدمجة ، تفوق حاجتهم إلى (كيلرمان) اللعين هذا بكثير ، وسيضحون به بلا تردُّد ، مقابل الحصول عليها .

انعقد حاجبا (تورنسول) فى شدة ، دون أن يعلّق ، فى حين تابع (ستيفان) فى صرامة :

ـ والآن إليك التعليمات الجديدة .. المطلوب منكم تحويل مبلغ مليارى دولار ، بزيادة نصف مليار دولار

عن العرض السابق ، عقابًا لكم على محاولة خداعنا ، إلى حساب سرى هنا فى (جنيف) ، وبعد إتمام التحويل ، ووصول النقود ، وقيامنا بتحويلها إلى حيث نشاء ، سنمنحكم أسطوانتنا ، والأكثر أهمية أن أمامكم يومان فحسب ، لتنفيذ هذا ، وإلا فلن تحصلوا على الأسطوانة أبدًا .. هل تفهم ؟

قال (تورنسول) فى عصبية :

ـ هل تعتقد أنهم سيوافقون على عرض كهذا ؟

هزّ (ستيفان) كتفيه ، قائلاً :

ـ هذا شأنهم .

ثم ابتسم فى سخرية ، مغمغمًا :

ـ ولكن ينبغى أن يعلموا أن عرضهم ليس العرض الوحيد لدينا .

لم يكن يدرى ، وهو ينطق عبارته هذه ، أنه هناك من يقرأ حركات شفتيه ، على بعد مائة متر فحسب من الفيلا ..

فهناك ، وخلف شجرة كبيرة ، فوق تلّ جليدى قريب ، وقفت (جيهان) ، تراقب ما يحدث داخل الفيلا ، عبر منظار مقرّب كبير ..

كانت تتابع الموقف ، منذ وصول (كيلرمان) و (تورنسول) والشاحنات الثلاث ، وحتى هذه اللحظة ..

وكانت لديها قدرة مدهشة ، تدرّبت عليها فى أروقة المخابرات العامة المصرية ، على قراءة حركات الشفاه ، بأربع لغات حيه ، ومعرفة ما يتحدّث به أصحابها من بعيد ..

لذا فقد تابعت الحوار كله ، وأدركت أن الأمريكيين لم يحصلوا على تلك الأسطوانة المدمجة بعد ..

وفى شىء من الارتياح ، غمغمت :

ـ هذا يمنحنا وقتًا إضافيًا على الأقل .

كان نصف عقلها يتابع الموقف ؛ لاستكمال المهمة ، تبعًا للأوامر التى تلقتها من (القاهرة) ، والنصف الثانى يتساءل متوترًا عن مصير (أدهم) ، الذى اختفى تمامًا ، ولم تعثر له على أثر ..

وكان قلبها يبكى من أجله ..

يبكى بدموع من دم ..

فمع اختفائه فقط ، أدركت كم تحبه ..

كم تذوب فى عشقه حتى النخاع ..

لم تكن تحتمل فكرة فقده ، بعد أن تسلل إلى قلبها على هذا النحو ..

مجرَّد الفكرة كانت تمزِّق كيانها ، وتؤلم مشاعرها ، على نحو لم تعهده فى نفسها قط ، عبر سنوات حياتها كلها ..

حتى عندما فقدت والديها ، قبل أن تبلغ العشرين من عمرها ، لم تشعر بمثل هذا التمزُّق والحزن ..

تُرى ماذا أصاب (أدهم) ؟!..

أين هو ؟!..

ماذا فعلوا به ؟!..

هل قتلوه ، أم ...

ونفضت الفكرة بسرعة عن رأسها ..

لن يمكنها استيعاب هذا ..

لن يمكنها أبدًا ..

صحيح أن حياتها وعملها جعلاها تألف وتعتاد رائحة الموت ، حتى أنها لم تسقط أو تنهار ، مع فقدان والديها ، ولا عندما لقى زميلها السابق مصرعه أمام عينيها ، منذ أقل من عام واحد ..

ولكنها لا تستطيع احتمال تلك الرائحة هذه المرة ..

إنها تزكم أنفها ، وتعذِّب نفسها ، وتثقل على صدرها ، وتكاد تُطبق على أنفاسها ، وتقتلها بلا رحمة ..

هذه المرة بالذات ، تكاد رائحة الموت تصرعها ..

هذا لأن الموت هذه المرة يختلف ..

إنه موت الرجل الذى لم تحب فى حياتها سواه ..

موت (أدهم) ..

استغرقتها مشاعرها تمامًا ، حتى أنها لم تشعر بذلك الذى تسلَّل من خلفها فى خفة ، حتى صار قاب قوسين أو أدنى منها ، ثم ألصق فوهة مسدسه الباردة برأسها بغتة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟

انتفض جسدها فى قوة ، ولكنها لم تفقد سيطرتها على أعصابها ، ولم يفقد عقلها قدرته على المواجهة ، أو الاستجابة لمقتضيات الموقف ..

لقد انحنت فى سرعة ، ومال جسدها كله بحركة مرنة ، وهى تدور حول نفسها ، وتهوى بقبضتها على معدة الرجل ، قائلة :

ـ أراقب الفيلا .. ألديك مانع ؟

كانت مبادرة مباغتة ، فانثنى الرجل فى ألم ، مع اللكمة القوية ، التى أصابت معدته ، وأجبرته (جيهان) على الاعتدال ، بلكمة مباشرة فى أنفه ، قبل أن تقفز ، وتدور حول نفسها فى مهارة ، وتركله فى فكه ، مستطردة :

ـ ثم من يهتمّ بما لديك .

سقط الرجل فوق الثلوج ، وانزلق جسده لمترين أو ثلاثة ، قبل أن تنتبه (جيهان) فجأة إلى زميله ، الذى يصوّب إليها بندقيته ، هاتفا :

ـ أيتها اللعينة !

ثم ضغط زناد بندقيته ، المزوّدة بكاتم للصوت ، وانطلقت منها رصاصة مكتومة ، و ..

وكانت الإصابة مباشرة .

* * *

٧ ـ الوداع ..

غادرت (أنستازيا) حجرة نومها ، فى المنزل الآمن ، الذى يقيم فيه الفريق الروسى ، وهى ترتدى ثوبًا قصيرًا ، وتثاءبت فى تراخ ، مغمغمة :

ـ يوم جديد من الصراع والانتصارات .

فوجئت بصوت (كوربوف) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ ربما لا يكون كذلك .

التفتت إليه فى دهشة ، وهو يجلس إلى جوار النافذة ، ويتطلّع إليها بنظرة باردة ، وقالت وهى تتجه إليه :

ـ هل اكتفيت بساعة واحدة من النوم ، أم أنك لم تنم بعد ؟

تطلّع إلى ثوبها القصير بنظرة لا مبالية ، وهو يقول فى صرامة :

ـ أين وضعت (أدهم صبرى) يا (أنستازيا) ؟

جلست على المقعد المقابل له ، وهى تقول فى استهتار :

- أتقصد أين دفنته ؟.. عجبا !.. لم أكن أعلم أنك رقيق المشاعر إلى هذا الحد يا عزيزى (كوربوف) .. هل ترغب فى إلقاء نظرة وداع ، على جثة غريمك القديم ؟

ضاقت عيناه ، وهو يقول :

- هذا لو أنه لقى مصرعه .

رمقته بنظرة متحدية ، ثم أشارت إلى عقارب ساعة الحائط الكبيرة ، قائلة :

- إنها السابعة والنصف الآن ، ولقد دفنته داخل تابوت محكم ، فى الرابعة صباحا تقريبًا ، وأعتقد أن ما لديه من هواء لن يكفيه لأكثر من ساعتين ، حتى ولو حبس أنفاسه طويلاً ، وهذا يعنى أنه إما أن يكون قد لقى مصرعه مختنقا ، داخل قبره الثلجى ، أو أنه فضّل اختصار الوقت ، واستخدم المسدس الذى تركته له ، لينهى حياته بسرعة ، وبأقل عذاب ممكن .

ثم مطّت شفتيها ، مستطردة :

- وسيؤسفنى أن يلجأ إلى الحل الأخير .

قال (كوربوف) فى صرامة :

- لن يفعل .

ثم اعتدل مستطردا :

- (أدهم صبرى) ليس بالرجل الذى ينتحر ، إلا فى سبيل وطنه .

قالت بلهجة شبه ساخرة :

- يبدو أنك شديد الإعجاب به .

أجابها فى حزم :

- بل شديد المعرفة بقدراته ومهاراته غير العادية ، حتى أننى لن أثق فى مصرعه هذه المرة ، حتى أرى جثته بنفسى .

وضعت إحدى ساقيها فوق الأخرى ، وهى تتراجع فى مقعدها ، قائلة فى تحد :

- أما أنا ، فشديدة الثقة بأنه لن ينجو هذه المرة .

ازداد انعقاد حاجبى(كوربوف) فى شدة ، ثم هبّ فجأة من مقعده ، وجذبها من شعرها فى قسوة ، وهوى على وجهها بصفعة قوية ، جعلتها تصرخ :

- كيف تجرؤ ؟

وحاولت الانقضاض عليه ، إلا أنه التقط معصمها بحركة سريعة ، ولوى ذراعها خلف ظهرها ، ثم دفعها إلى الأمام ، دون أن يفلت شعرها من قبضته الأخرى ، وضرب جبهتها بمسند المقعد فى عنف قاس ، وهو يقول :

ـ حذار أن تخاطبينى بهذا الأسلوب ، ولا تنسى أبدًا أننى رئيسك المباشر ، وأن الواجب والقانون يحتمان عليك طاعتى ، وعدم مناقشة ما ألقيه من أوامر ، والتحدّث معى بأسلوب لائق .

وعاد يجذبها من شعرها فى قسوة ، ثم يضرب جبهتها بالمسند ثانية ، مستطردًا فى صرامة أكثر :

ـ أما قانونى الخاص ، فهو يحتم عليك أن ترتدى شيئًا لائقًا فى مواجهتى ، بدلاً من هذا الثوب الحقير ، الذى يجعلك أقرب إلى العاهرة ، منك إلى فتاة مخابرات محترمة .. هل تفهمين ؟

وألقاها أرضًا فى عنف ، صائحًا :

ـ أجيبى .. هل تفهمين ما قلته ؟

اندفع (إيفان) من حجرته ، حاملاً مسدسه ، وهو يهتف :

ـ ماذا حدث ؟

التفت إليه (كوربوف) فى صرامة ، قائلاً :

ـ أعد مسدسك إلى غمده .

أما (أنستازيا) ، فعلى الرغم من الغضب المشتعل فى أعماقها ، إلا أنها أزاحت خصلات شعرها المتناثرة عن وجهها ، ونهضت تقول فى حزم :



ثم هبَّ فجأة من مقعده ، وجذبها من شعرها فى قسوة ..

- لا شىء .. إنه نقاش بسيط ، بينى وبين رئيسى المباشر .

ثم رفعت رأسها فى اعتداد ، مستطردة :

- إذن فأنت ترغب فى زيارة قبر ذلك المصرى بنفسك .

عقد (كوربوف) كفيه خلف ظهره ، وهو يقول فى صرامة :

- ودون إضاعة لحظة واحدة .

التقطت نفسًا عميقًا ، وهى تجيب :

- فليكن .. سأحملك إليه على الفور .

لم تمض نصف الساعة ، على حديثهما هذا ، حتى كان الثلاثة يقفون عند ذلك الموقع ، الذى دفنت فيه (أنستازيا) التابوت الخشبى ، الذى يحوى جسد (أدهم) ، ولقد أشارت إلى الجليد المنتظم فى الموقع ، قائلة :

- انظر يا رئيسى المباشر .. كل شىء هادئ ، وهذا يعنى أن صاحبك لم يفرّ من قبره ، إلا لو كان قد فعلها على صورة شبح ، علمًا بأننى لا أومن بوجود الأشباح .

ألقى (كوربوف) نظرة على الموقع ، ثم التفت إلى (إيفان) ، قائلا :

- أخرج التابوت .

حدّق فيه (إيفان) بدهشة ، فى حين انعقد حاجبا (أنستازيا) فى شدة ، وهى تقول :

- إجراء غير حكيم يا (كوربوف) .

أجابها فى صرامة :

- لماذا ؟.. ما دمت تؤكدين أن هذا الوقت يكفى ليلقى مصرعه اختناقًا .. هل تخشين أن تكون حساباتك خاطئة ؟

قالت فى حدة :

- مستحيل !

ثم التفتت إلى (إيفان) ، مستطردة :

- هيا .. سأعاونك فى إخراج التابوت ..

ورمقت (كوربوف) بنظرة جانبية ، قبل أن تضيف :

- أنا أيضًا أرغب فى إلقاء نظرة وداع على ذلك المصرى .. تأكيدًا لنجاحى على الأقل ..

لم تكن طبقة الجليد كثيفة ، فى تلك البقعة ؛ لذا فلم يستغرق إخراج التابوت أكثر من دقائق معدودة ، قالت (أنستازيا) بعدها ، وهى تلهث :

- استعد لإلقاء نظرة الوداع ، يا رئيسنا المباشر .

قالتها ، وفتحت غطاء التابوت بحركة مسرحية ..

وانعقد حاجبا (كوربوف) فى شدة ..

ولكن نظرته لم تكن تحمل شيئًا من الدهشة ، وهو يتطلّع إلى التابوت الخشبى ..

هذا لأن ما رآه أمامه لم يكن يتجاوز ما شعر به فى أعماقه ، قبل أن تفتح (أنستازيا) التابوت بلحظة واحدة ..

لم يكن يتجاوزه قط ..

* * *

ارتفع حاجبا الدكتور (أحمد صبرى) فى دهشة ، عندما فوجئ بـ (قدرى) أمامه ، فى مستشفى (نيويورك) المركزى ، وهتف وهو يندفع نحوه :

- (قدرى) ؟!. لم أكن أتوقّع قدومك قط يا رجل .

ترقرقت عينا (قدرى) بالدموع ، وهو يغمغم :

- كان من الضرورى أن أراها .. أن ألقى عليها نظرة أخيرة على الأقل .

قال الدكتور (أحمد) فى دهشة :

- هل قطعت كل هذه المسافة ، من أجل نظرة وداع ؟

هتف (قدرى) :

- ألم تكن تستحق هذا ؟

وانفجر باكيًا فى حرارة ، فتطلّع إليه الدكتور (أحمد) مشفقًا ، وهو يغمغم :

- بلى .. كانت تستحق ما هو أكثر من هذا .

ثم سأله فى اهتمام :

- هل أبلغتم (أدهم) بالأمر ؟

هزّ (قدرى) رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

- ليس بعد .. إنه غارق حتى أذنيه فى مهمة بالغة السرية والخطورة ، ولقد رأوا فى (القاهرة) أنه ليس من المناسب إبلاغه الأمر ، فى مثل هذه الظروف ..

تردّد الدكتور (أحمد) لحظات ، قبل أن يغمغم :

- لست أدرى .. ربما ..

وبتر عبارته بغتة ، ليقول :

- فليكن .. إنهم أكثر خبرة فى هذا المجال .

أمسك (قدرى) يده فى قوة ، قائلاً :

- دكتور (أحمد) .. خذنى إليها .. أرجوك .

قالها ، وهو يندفع معه إلى الأمام ، فاستوقفه الدكتور (أحمد) ، قائلاً :

- مهلاً يا رجل .. إلى أين تذهب ؟.. إنها لم تعد فى قسم العناية الفائقة بالطبع .. أعنى .. احم .. أنت تفهم ، فى مثل هذه الـ ...

تشبّث به (قدرى) ، وهو يقول :

- خذنى إليها أينما كانت .. أرجوك .. أرجوك يا دكتور (أحمد) .

تردّد الدكتور (أحمد) لحظات ، وهو يغمغم :

ـ الواقع أننى .. لست أدرى ما إذا كان من المسموح أن ..

قاطعه (قدرى) باكيا :

ـ دعك من القواعد والأوامر ، والمسموح به وغير المسموح به .. خذنى إليها بأى ثمن .. أرجوك .

تنهّد الدكتور (أحمد) فى حرارة ، وقال وهو يربُت على كتفه :

ـ فليكن يا (قدرى) .. سآخذك إليها .

ظلّ (قدرى) يبكى فى حرارة وحزن ، والدكتور (أحمد) يقوده عبر أروقة المستشفى ، حتى وصلا إلى المكان الذى نقلت إليه (منى) ..

وبقدمين مرتجفتين ، خطا (قدرى) إلى المكان ، ولكن لم يكد بصره يقع عليها ، حتى انفجر باكيًا ، وانهارت مشاعره كلها فى شدة ..

لقد كان الموقف أكبر مما يمكنه احتماله ..

أكبر بكثير ..

* * *

صوّب الرجل بندقيته إلى (جيهان) فى إحكام ، وهو يهتف :

ـ أيتها اللعينة .

كان الغضب يملأ كيانه كله ، بعد أن رآها تضرب زميله ، وتطيح به أمام عينيه ، وكانت بندقيته مزوّدة بكاتم للصوت ، فضغط زنادها ، و ...

وفجأة ، انطلقت نحوه كرة من الثلج ، لترتطم بيده فى عنف ..

وكانت الإصابة مباشرة ..

وبتأثير الإصابة ، مالت يد الرجل فى حدة ، وانطلقت الرصاصة الصامتة فى الفراغ ، فاتسعت عينا (جيهان) فى دهشة ، وهى تهتف :

ـ عجبًا !.. من الذى ..

قبل أن تتم سؤالها ، اندفع رجل من خلف شجرة بعيدة ، وانقضّ على ذلك الذى يصوّب إليها بندقيته ، وهوى على فكه بلكمة كالقنبلة ، هاتفًا :

ـ من العار أن تصوّب بندقيتك إلى امرأة .

شهقت (جيهان) فى قوة ، انتزعت كل مشاعرها ، وهى تصرخ :

ـ مستحيل !

ثم انطلقت تعدو نحو الرجلين المتصارعين ، هاتفة فى انفعال جارف :

- (أدهم) .. (أدهم) .. أنت حى .

كان الرجل يحاول استعادة بندقيته ، إلا أن (أدهم) لكمه فى معدته بأقصى قوته ، ثم حطَّم أنفه بلكمة ثانية كالصاعقة ، هوى بعدها الرجل فاقد الوعى ، فى نفس اللحظة التى وصلت فيها (جيهان) إلى حيث يقف ، وألقت نفسها بين ذراعيه ، هاتفة :

- كنت أعلم أنك ستعود .. كنت واثقة من هذا .

وتفجَّرت دموعها الحارة كحمم ملتهبة ، تغرق صدره كله ، فربَّت على كتفها فى رفق حنون ، قبل أن يبعدها عنه فى رقة ، مغمغمًا :

- كان الأمر عسيرًا هذه المرة ، ولكن اللّـه (سبحانه وتعالى) عاوننى على تجاوزه .

سألته فى لهفة ، وسعادتها تسيل مع حروف كلماتها :

- ماذا حدث ؟.. ماذا فعلوا بك ؟

أجابها مبتسمًا :

- كانت (أنستازيا) رقيقة المشاعر للغاية هذه المرة .. لقد وضعتنى داخل تابوت خشبى ، ودفنتنى تحت الثلج ، ولكنها لم تنس أن تضع معى مسدسًا ، تحوى خزانته رصاصة واحدة ؛ حتى يمكننى إنهاء حياتى ، عندما يتملكنى اليأس من النجاة .

تطلَّعت إليه مبهورة ، وهى تسأل :

- وكيف تجاوزت أمرًا كهذا ؟

تنهَّد مبتسمًا ، وهو يغمغم :

- قلت لك : إن الأمر كان عسيرًا بحق هذه المرة ..

ثم أضاف فى شىء من السخرية :

- ولكن رصاصة (أنستازيا) أفادتنى كثيرًا .

سألته فى لهفة :

- كيف ؟

أجابها بابتسامة كبيرة :

- سأخبرك كيف .

وراح يروى لها كيف خرج من القبر ..

القبر الثلجى ..

* * *

لم يكد (أدهم) يستوعب موقفه ، وهو داخل ذلك التابوت الخشبى ، تحت الثلوج ، حتى بدأ عقله فى دراسة الحلول المنطقية للموقف على الفور ..

ولكن كل الحلول المنطقية كانت تقود إلى نتيجة واحدة ..

استحالة الخروج من هذا المأزق ..

لذا فقد قرَّر (أدهم) أن يطرح الحلول المنطقية

والتقليدية جانبًا ، وأن يبدأ فى دراسة الحلول غير التقليدية ..

لم يكن يملك سوى قوته وعقله ..

ومسدس من طراز (بريتا) ، تحوى خزانته رصاصة واحدة ..

وتكوّنت الفكرة فى رأسه بسرعة ..

كان يعلم أن طبقة الجليد فوق التابوت ليست سميكة أو عميقة ، لأن المناطق التى تصلح لدفن التابوت*، تحت طبقة عميقة من الثلوج ، تبعد كثيرًا عن (جنيف) ، وسيحتاج الأمر إلى معدات خاصة لدفنه فيها ..

الأرجح إذن أنه مدفون على عمق بسيط ..

وعلى الرغم من دقة وصعوبة موقفه ، وجد نفسه يبتسم فى سخرية ، وهو يلتقط المسدس ، مغمغمًا :

ـ من سوء حظك أنك اخترت هذا الطراز من المسدسات بالذات ، يا عزيزتى (أنستازيا) ، ولكنه سيساعدنى بأكثر مما كنت تتوقعين .

فكّ أجزاء المسدس فى سرعة ، والتقط ماسورة إطلاق النار ، وهو يتابع ، محاولاً التسرية عن نفسه بحديثه الهامس .

ـ طراز (بريتا) بالذات له ماسورة إطلاق منفصلة ، لا تتصل إطلاقًا بجسم المسدس .. كان ينبغى أن تدركى هذا يا (أنستازيا) .

فصل الماسورة عن المسدس ، ثم التقط الرصاصة من الخزانة ، ودفع قمتها المدببة فى الغطاء الخشبى للتابوت ، وراح يديرها فى بطء وقوة ، حتى صنعت فيه ثقبًا له نفس قطرها ، عمل على توسيعه قليلاً ، ثم دفع فيه ماسورة المسدس حتى لم يتبق منها سوى جزء ضئيل للغاية داخل التابوت ..

وهنا ، جاء دور المرحلة الأكثر صعوبة ..

وبوساطة السوستة القوية ، التى انتزعها من المسدس ، راح يجاهد لفصل مقذوف الرصاصة عن مظروفها ..

وكانت هذه المرحلة شاقة للغاية .. لقد تم صنع الرصاصة ، بحيث لا ينفصل المقذوف عن المظروف ، إلا تحت ضغط هائل ، عندما يعطى البارود اللادخانى المحترق أضعاف أضعاف حجمه من الضغط ، فور اشتعاله ..

وبدون هذا الضغط الهائل ، احتاج (أدهم) إلى ساعة كاملة أو يزيد ، قبل أن يفصل المقذوف عن المظروف ، دون أن يفقد البارود اللادخانى داخل الأخير ..

ثم دفع (أدهم) المظروف داخل ماسورة المسدس ، بحيث تواجهه قاعدته ، وانتزع إبرة الإطلاق من المسدس ، ودفع قاعدة المظروف بخزانة المسدس فى قوة ، حتى يضمن عدم ارتداد المظروف للداخل مع الضغط ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ الآن تحين اللحظة الحاسمة .

وتحسّس موضع قاعدة الإطلاق فى المظروف ، ليحدّد موقعها بالضبط ، ثم هوى عليها بإبرة إطلاق النار ، هاتفًا :

ـ على بركة الله .

وما إن أصابت الإبرة قاعدة الإطلاق فى المظروف ، حتى اشتعل البارود اللادخانى داخله ، وانطلقت حرارته الرهيبة ، مع الضغط المتولّد عنها إلى أعلى ، بعد أن تصدّت لها خزانة المسدس ، التى يضغطها (أدهم) بكل قوته من أسفل ..

ومع الضغط والحرارة الشديدين ، ذابت طبقة من الثلوج فوق التابوت ، وتناثرت طبقة أخرى فى عنف ..

وهنا ، جاء دور عضلات (أدهم) ، التى ضغطت غطاء التابوت بقوة خرافية ، تدفعها إرادة فولاذية ، يندر أن يجود الزمان بمثلها ..

وانفتح التابوت ..

ومع الضوء الذى غمر وجهه ، أدرك (أدهم) أن الله (سبحانه وتعالى) ، قد اختار له النجاة ، فى هذه المرة أيضًا ..

واختار له البقاء ..

* * *

ارتجف قلب (جيهان) بين ضلوعها ، وهى تستمع إلى (أدهم) ، الذى أنهى قصته ، قائلًا فى هدوء :

ـ وهكذا خرجت من القبر الثلجى ، ثم أعدت الغطاء فوق التابوت ، وألقيت فوقه الثلوج ، ثم اتجهت إلى المنزل الآمن الاحتياطى ، وهناك أخبرنى (أشرف) بقدومك إليه ، فأجريت اتصالًا بـ (القاهرة) ، ثم لحقت بك هنا .

هتفت فى سعادة :

ـ ووصلت فى الوقت المناسب كعادتك .

ثم اقتربت منه ، مستطردة فى حب واضح :

ـ لست أدرى ماذا كنت سأفعل ، لو أنك لقيت مصرعك ؟.

أجابها فى هدوء ، يحمل نبرة حازمة :

ـ كنت ستواصلين المهمة كما فعلت .

قالت بسرعة :
ـ ربما ، ولكن ..
ثم رفعت عينيها إليه ، مستطردة فى صوت هامس متهدّج :
ـ ماذا عن حياتى ؟.. أتعتقد أنه سيكون لها طعم بدونك ؟
أشاح بوجهه ، قائلاً فى صرامة :
ـ الحياة لن تتوقف لمصرع شخص واحد ، مهما بلغت مكانته .
شعرت بالغضب لموقفه ، فقالت فى حدة :
ـ لماذا تتجاهلنى هكذا ؟
أجابها فى حزم :
ـ لست أتجاهلك أيتها النقيب .. إننى أحاول التركيز على مهمتنا .
صاحت فى حنق :
ـ بل تحاول الفرار منى .. تحاول قتل مشاعرك تجاهى .
التفت إليها فى دهشة ، قائلاً :
ـ مشاعرى تجاهك ؟!
هتفت فى مرارة :

ـ نعم .. إنك تشعر بالقلق وتأنيب الضمير ، لأن قلبك يخفق من أجلى ، كما يخفق قلبى من أجلك .. اعترف بهذا .. لا تحاول خداع نفسك أو خداعى .
انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يواجهها بنظرة صارمة ، قائلا :
ـ لست أحاول خداع أحد أيتها النقيب ، فمشاعرى واضحة وثابتة ، فى هذا الشأن .. لقد منحت قلبى لأنثى واحدة ، وسيبقى ملكا لها ، ما دامت على قيد الحياة .
قالت فى حدة :
ـ حتى ولو كانت غارقة فى غيبوبة عميقة ، لا أمل فى الخروج منها قط ؟
لوّح بسبّابته فى وجهها ، صائحًا :
ـ نعم .. حتى ولو قضت عمرها كله فى هذه الغيبوبة .
حدّقت فى وجهه بدهشة ، قبل أن تتراجع متمتمة فى حزن وألم :
ـ هل تحبها حقًّا إلى هذا الحد ؟
أطلّ حزن هائل من عينيه ، وهو يغمغم :
ـ وأتمنى لو يمنحنى القدر فرصة واحدة ، لأهمس بحبى كله فى أذنيها .

اتسعت عيناها فى ارتياع ، عندما نطق عبارته الأخيرة ، وشعرت وكأن قلبها قد انفطر فى صدرها ، ثم تساقط ممزقًا بين قدميها ..

وصرخت فى أعماقها :

ـ كيف فعلت هذا ؟!.. كيف اعترفت له بحبى على هذا النحو ؟!.. كيف تفعل امرأة هذا ؟!.. كيف ؟!.. كيف ؟!..

لم تتجاوز صرختها شفتيها ، ولكنها انفجرت داخلها ، وهدمت كل مشاعرها دفعة واحدة ، فترقرقت عيناها بالدموع ، وشعر (أدهم) بقسوته فى التعامل معها ، فهمس فى رقة :

ـ (جيهان) .. لم أكن أقصد أن ...

فوجئ بها تدفعه فى حدة ، صائحة :

ـ ابتعد .

ثم استلّت مسدسها فى حركة سريعة ، و ...

وأطلقت النار ..

وسالت الدماء على الجليد .

* * *

٨ ـ المأزق ..

اتسعت عيون (أنستازيا) و (إيفان) فى ذهول ، وهما يحدقان فى التابوت الخشبى الخالى ، وهتفت الأولى :

ـ مستحيل !.. كيف أمكنه الخروج منه ؟

أجابها (كوربوف) فى صرامة :

ـ هل أدهشك هذا ؟

رفعت عينيها إليه ، هاتفة فى حدة :

ـ بالطبع .. لو أنك درست الموقف ، لما وجدت وسيلة منطقية واحدة للفرار .

أشار (كوربوف) إلى جزء محترق ، فى قمة التابوت ، وهو يقول :

ـ عندما يتعلّق الأمر بـ (أدهم صبرى) ، اطرحى كلمة المنطق هذه جانبًا .. لقد أدركت فور رؤيتى لهذا الجزء المحترق ، أنك ستفتحين التابوت لتجديه خاليًا .

حدّقت (أنستازيا) فى ذلك الجزء المحترق ، قبل أن تقول فى حدة :

ـ وما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟

زفر (كوربوف) فى حنق ، وهو يجيب :

ـ لقد استخدم رصاصتك .

عادت تحدّق فى الجزء المحترق فى حيرة ، مغمغمة :

ـ لست أفهم كيف !

أجابها (كوربوف) فى حدة :

ـ حاولى تشغيل ذلك الجزء المعطّل فى رأسك ، الذى يطلقون عليه اسم المخ ، وربما تتوصّلين إلى كيفية هروبه .

بدا التوتر الشديد فى ملامحها ، فى حين قال (إيفان) حائرًا :

ـ ذلك الرجل ليس عاديًا بالتأكيد يا (كوربوف) !!.. كيف يمكنه أن ينجو من كل هذا ؟

أجابه (كوربوف) فى مرارة ، اختفت خلف لهجته الصارمة القاسية :

ـ لقد وعيت الدرس جيدًا هذه المرة يا (إيفان) .. لقد حاولت تدمير (أدهم صبرى) أكثر من مرة ، وفى مواجهتنا الأولى تصوّرت أننى دمّرته تمامًا (*) ، ثم

(*) راجع قصة (سم الكوبرا) .. المغامرة رقم (٥١) .

تكشّفت لى حقيقة كبرى ، فى شخصية ذلك الرجل ، لست أدرى كيف غابت عنى حتى الآن .

تطلّع إليه (إيفان) و (أنستازيا) فى فضول متسائل ، وهو يتابع فى حنق :

ـ نحن الذين نمنحه فرصة الانتصار علينا دائمًا .

قالت (أنستازيا) فى عصبية :

ـ لم تكن لديه أية فرصة هذه المرة .

أشار إليها فى غضب ، هاتفًا :

ـ يكفى أنك منحتيه الوقت ليفكر .

تراجعت ، قائلة فى دهشة :

ـ الوقت ؟!

أجابها فى حدة :

ـ نعم أيتها الغبية .. هذا هو السبب ، الذى جعلنا نفشل دومًا فى القضاء عليه .. إننا نمنحه الوقت ليفكّر .. ليعمل .. ليقاتل .. ومن الضرورى أن نستوعب هذا الموقف جيدًا ، فى مواجهتنا القادمة معه .. من الضرورى ألا نمنحه الوقت ليفكّر .. لا تتحدّثوا حتى معه .. أطلقوا النار عليه فور رؤيته .. هل فهمتم ؟

صمت (إيفان) تمامًا ، فى حين غمغمت (أنستازيا) :

- نعم .. فهمت .. القتل أولاً ، ثم الحديث فيما بعد .

رمقها (كوربوف) بنظرة صارمة ، وهو يقول فى غضب :

- لو أنك طبقت هذه القاعدة أيتها الغبية ، عندما كان فاقد الوعى بين يديك ، لكان الآن جثة هامدة ، وليس شوكة فى ظهرنا .

عقدت ساعديها أمام صدرها ، وهى تقول متحدية :

- ولو أنك طبقت القاعدة نفسها ، عندما كان بين يديك ، وأطلقت النار على رأسه مباشرة ، بدلاً من إلقائه فى البحيرة ، لما ظل حيًّا ليفقد وعيه بين يدىّ .

انعقد حاجبا (كوربوف) فى شدة ، ثم انقضّ فجأة على (أنستازيا) ، وهوى على وجهها بصفعة قوية ، صائحًا :

- تعلّمى كيف تخاطبين رئيسك .

اتسعت عينا (إيفان) فى دهشة ، فى حين احتقن وجه (أنستازيا) فى شدة ، وبدا لحظة وكأنها ستنفجر فى وجه (كوربوف) ، أو أنها ستستلّ مسدسها ، وتطلقه على رأسه مباشرة ، إلا أنها لم تلبث أن تماسكت ، وهى تقول فى غضب مكبوت :

- سأحاول .

حدّق (إيفان) فى وجهها بدهشة ، وقبل أن ينبس ببنت شفة ، ارتفع رنين هاتف سيارة (كوربوف) ، فاعتدل هذا لأخير ، واتجه إلى سيارته فى خطوات واسعة ، ليجيب الهاتف . فمال (إيفان) على (أنستازيا) ، هامسًا :

- كيف يمكنك احتمال هذا ؟

عضت شفتيها فى غضب ، مغمغمة :

- لكل شىء أوانه .. ولكل شىء وقته .

وتألّقت عيناها ببريق وحشى مخيف ، وهى تضيف :

- لكل شىء .

أما (كوربوف) ، فقد التقط سمّاعة هاتف سيارته ، وهو يقول :

- من المتحدّث ؟

أتاه صوت (ستيفان) ، وهو يقول فى برود :

- لقد رفضنا عرضكم يا مستر (كوربوف) .

كادت أصابع (كوربوف) تعتصر الهاتف ، وهو يقول فى حدة :

- ماذا تعنى يا مستر (ستيفان) ؟!.. كيف رفضتم عرضنا ؟

أجابه (ستيفان) فى لامبالاة :

ـ القيادة رفضت منحكم المهلة المطلوبة ، أيًا كان السبب ، وأكدت لى أنها محاولة لإضاعة الوقت فحسب ، حتى يتمَ تنفيذ الخطة ، وتصبح الأسطوانة عديمة القيمة ، ولهذا ، فنحن نرفض العرض .

قال (كوربوف) فى توتر :

ـ اسمع يا (ستيفان) .. هذا الأمر يحتاج إلى استشارة رؤسائى فى (موسكو) .

أجابه (ستيفان) :

ـ أعلم هذا يا مستر (كوربوف) .. والقيادة أيضًا تعلمه ، ولقد حاولنا الاتصال برئيسك (زورين) ، ولكنه ليس فى مكتبه .. من المؤكد أنك تعرف وسيلة أخرى للاتصال به .. أبلغه أننا رفضنا العرض ، إلا إذا ..

توقف بغتة ، عند هذه النقطة ، فسأله (كوربوف) فى حذر :

ـ إلا إذا ماذا ؟

صمت (ستيفان) لحظة ، ثم أجاب فى حزم :

ـ إلا إذا تمت الصفقة قبل مرور أربع وعشرين ساعة من الآن .. وبالتحديد قبل الثامنة والنصف من صباح الغد ، فإما أن نتسلم الصواريخ ذات الرءوس النووية ، أو نسلم الأسطوانة للأمريكيين .. وهذا هو قولنا الأخير .

قالها ، وأنهى المحادثة بأسلوب جاف عنيف ، تاركًا (سيرجى كوربوف) خلفه ، يعتصر عقله وأعصابه ، فى محاولة لإيجاد وسيلة للخروج من هذا المأزق ..

وفى توتر شديد ، ضغطت سبَّابة (كوربوف) أزرار الهاتف ، وقد قرَّر أن ينقل المشكلة كلها إلى رئيسه (زورين) ، ويترك له مهمة اتخاذ القرار ، فى هذا المأزق ..

القرار الحاسم .

* * *

تحرك (أدهم) فى سرعة ، عندما دفعته (جيهان) بعيدًا ، ومال جانبًا ؛ ليتفادى رصاصة مسدسها المزوَّد بكاتم للصوت ، وهو يتساءل فى دهشة عما تفعله الغيرة بالنساء ، إلى الحد الذى يفقدهن اتزانهن ورجاحة عقلهن ..

ولكنه انتبه بغتة إلى أنها لا تصوِّب مسدسها إليه ، وهى تطلق منه رصاصة صامتة ، لم تكد تعبر ماسورته ، حتى ارتدَّت (جيهان) نفسها فى عنف ، وتفجَّرت عند كتفها بقعة كبيرة من الدم ، قبل أن تسقط أرضًا ..

وفهم (أدهم) الموقف بسرعة ، وهو ينحنى ليختطف


وانطلقت قبضته الأخرى تحسم القتال بلكمة ساحقة ..

المسدس من يدها ، ويستدير لمواجهة ذلك الخصم ، الذى تسلل من خلف ظهره ، وكاد يقتله برصاصته ، لولا أن انتبهت إليه (جيهان) فى اللحظة الأخيرة ..

وبقفزة جانبية مرنة ، تفادى (أدهم) رصاصة صامتة ثانية ، أطلقها الرجل نحوه ، ثم أطلق رصاصته بدوره ..

واتسعت عينا الرجل فى دهشة ، عندما أطاحت الرصاصة بمسدسه ، وتراجع مذعورًا ، ثم انحنى محاولاً التقاط المسدس ثانية ، ولكن (أدهم) وثب نحوه ، وركله بكل قوته فى وجهه ، صائحًا :

ـ رصاصتك وصلت أيها الوغد .

ثم هبط على قدميه ، وحطم أنفه بلكمة كالقنلبة ، مضيفًا :

ـ وهذا ثمنها .

وانطلقت قبضته الأخرى تحسم القتال بلكمة ساحقة ، أطاحت بثلاثة من أسنان الرجل ، و (أدهم) يكمل :

ـ نقدًا وفورًا .

سقط الرجل فاقد الوعى ، فاندفع (أدهم) نحو (جيهان) ، وهو يقول فى قلق :

ـ ألنت بخير ؟

ابتسمت فى شحوب ، قائلة :

ـ ما أعجبك يا سيادة العميد !.. تصرّ على أنه لا مكان لى فى قلبك ، ثم تقاتل كالمجنون ، عندما يمسّ أحدهم شعرة منى .

أجابها بابتسامة باهتة ، وهو يفحص جرحها :

ـ هذا أمر طبيعى ، فأنت زميلتى .

قالت فى إحباط :

ـ فقط ؟!

اتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

ـ ولقد أنقذت حياتى .

قالت مداعبة :

ـ كان المفروض أن أقتلك .

أومأ برأسه موافقًا ، ثم قال فى اهتمام :

ـ من حسن حظك أن الرصاصة لم تستقرّ فى كتفك ، ولكن هذا لا يعنى أنك لا تحتاجين إلى إسعاف عاجل .

قالت مبتسمة :

ـ وكيف أبرّر لهم إصابتى برصاصة ؟

أجابها ، وهو يحاول تضميد جرحها بجزء من ثيابها مؤقتًا :

ـ لن تكونى فى حاجة لهذا .. تظاهرى بالدهشة

والاستنكار ، وأخبريهم أنك أيضًا تجهلين كيف حدث هذا .

ضحكت فى ألم ، قائلة :

ـ يا لك من ثعلب !

ثم استدركت فى توتر :

ـ ولكن ماذا عن المهمة ؟

قال فى اهتمام :

ـ أخبرينى أنت ماذا عنها ؟.. المفروض أنك تراقبين المكان .

قصت عليه كل ما حدث ، منذ وصول (كيلرمان) و (تورنسول) مع الشاحنات الثلاث ، وحتى ظهوره المفاجئ ، فانعقد حاجباه ، وهو يقول :

ـ هذا يعنى أن الأمريكيين لم ينجحوا فى عقد الصفقة بعد .. عظيم .. هذا يمنحنا مهلة حتى المساء على الأقل .

ثم ضحك ، وهو يهزّ رأسه ، مستطردًا :

ـ نقود (مونتانا) .. يا لهم من ماكرين !.. كان هذا كفيلاً بخداع أى شخص بالفعل .

سألته فى اهتمام :

ـ كيف كشف (ستيفان) أمرها إذن ؟

أجاب بسرعة :

- من خلال عميل آخر ، تم زرعه فى (واشنطن) ، فى قلب جهاز المخابرات المركزية الأمريكية .

هتفت فى دهشة :

- هل تعتقد أنهم استطاعوا هذا ؟!.. ربّاه !.. هذا يعنى أن تلك المنظمة ، التى يعمل باسمها (ستيفان) هذا ، منظمة قوية بالفعل .

أومأ برأسه موافقًا ، وشرد ببصره لحظة ، قبل أن يقول :

- وهذا يُدهشنى فى الواقع ، فليس من السهل أو الطبيعى ، أن تنبت منظمة تجسُّس خاصة فجأة ، وتبدأ عملها بمثل هذه القوة ، دون أن تفصح حتى عن الاسم الذى اختارته لنفسها .

عاونها على النهوض ، وهى تسأله فى اهتمام :

- وماذا لو أنها ليست منظمة جديدة ؟

صمت لحظات ، وهو يسير معها نحو سيارتها ، التى أخفتها خلف شجرة كبيرة ، ثم قال فى حزم :

- تقصدين أنها منظمة قديمة ، نهضت مرة أخرى ، بعد نوع من البيات الشتوى .

أليس كذلك ؟.. نعم .. أعتقد هذا .. لقد راودتنى الفكرة نفسها ، وقفز إلى ذهنى اسم واجهته قديمًا .

أسرعت تقول :

- (سكوربيون)(*) ؟

تردّد لحظة ، قبل أن يجيب فى تحفُّظ :

- ربما .

كانا قد بلغا سيارتها ، فى هذه اللحظة ، فابتسم قائلًا :

- يبدو أنك تصرّين دومًا على اختيار السيارات الرياضية الصغيرة .

ضحكت ، قائلة :

- هذا صحيح ، وربما يوضع اسمى فى موسوعة (جينس)(**) ، كأشهر محطّمة للسيارات الرياضية .

لوّح بسبّابته ، قائلًا :

- ليس إذا دخلت أنا المنافسة .

فى نفس اللحظة ، التى استقرّ بهما فيها المقام ، داخل سيارتها الرياضية الصغيرة ، كان الجنرال (تورنسول) يغادر فيلا (ستيفان) ، فى سيارته

(*) راجع قصة (أرض الأهوال) .. المغامرة رقم (١٣) .

(**) موسوعة (جينس) (Guinness) : موسوعة خاصة بالأرقام القياسية فى كل المجالات .

الأمريكية الكبيرة ، وهو يحمل فى مقعدها الخلفى جثة (كيلرمان) ، وخلفه الشاحنات الثلاث ، فغمغم (أدهم) فى حسم :

- يبدو أن (ستيفان) قد نقل القيادة فعليًا للجنرال (تورنسول) .

سألته (جيهان) فى اهتمام :

- هل تعرف هذا الرجل ؟

أجابها ، وهو يتابع سيارة (تورنسول) ، ذات اللوحات الدبلوماسية فى اهتمام :

- بالتأكيد .. إنه الجنرال (جيمى تورنسول) ، قائد فرق العمليات الخاصة ، التابعة للمخابرات الأمريكية .. إنهم يطلقون عليه اسم (الذئب الكبير) ؛ لأنه يشرف على تدريب وإعداد رجال العمليات ، على نحو يجعلهم أشبه بذئاب مفترسة ، تهاجم بلا رحمة ، وتمزّق خصمها بلا تردُّد .. ولقد نجح فى كسب ثقة وحب رجاله ، حتى أنهم يدينون بالولاء له ، بأكثر مما يدينون به لبلدهم نفسه .

تنهّدت فى عمق ، محاولة التغلُّب على آلام إصابتها ، وهى تقول :

- حديثك هذا يجعلنى أشعر بالقلق ، لأنه سيتولّى قيادة العملية .

صمت (أدهم) طويلاً ، وهو يتابع ببصره سيارة صغيرة ، انطلقت خلف قافلة (تورنسول) فى حذر ، ثم قال فى خفوت :

- من يدرى يا عزيزتى ؟ .. ربما كان هذا لصالحنا .. من يدرى ؟

مالت تتطلّع إليه فى حيرة ، وهو يدير محرّك السيارة ، وينطلق بها فى هدوء ، ولم تدر لماذا بدت لها عبارته الأخيرة غامضة ، وتحمل الكثير من التفسيرات ..

وعلى الرغم من فضولها ولهفتها ، إلا أن فهمها لقواعد العمل منعها من إلقاء أية أسئلة ، ولكنها شعرت فى أعماقها أن (أدهم) يضع اللمسات الأخيرة فى خطته ..

خطة الحسم ..

* * *

« أربع وعشرين ساعة ؟!.. »

هتف (زورين) بالعبارة فى انزعاج شديد ، وهو يستمع إلى (كوربوف) عبر الهاتف الخاص فى منزله ، ثم ازدرد لعابه فى صعوبة ، وأكمل فى حدة :

- ولكن هذا مستحيل !.. أبلغهم أنه مستحيل

يا (سيرجى).. لا يمكننا إعداد وتسليم خمسة صواريخ، ذات رءوس نووية، فى هذا الزمن القصير.

أجابه (كوربوف) فى توتر مماثل:

- لا فائدة يا سيدى.. إنهم يصرّون هذه المرة، ويبدو أن قيادتهم قوية، وشديدة الذكاء والدهاء، ولها خبرة طويلة فى التعاملات والتآمرات الدولية، فهى تفهم كل ما نفعله، وتفسد كل محاولاتنا، و...

وصمت لحظة، قبل أن يستطرد فى شىء من الضيق:

- وإن كنت أجهل الفائدة المرجوة من إضاعة الوقت، فلو أن تلك الأسطوانة المدمجة تحوى أسرارًا بالغة الخطورة بالفعل، فما الفارق الذى يمكن أن يصنعه الوقت، ما دمنا نكتفى بالتفاوض ؟!.. الأسرار ستظلّ أسرارًا!

أجابه (زورين) فى حدة شديدة:

- ليس لك شأن بهذا يا (سيرجى).. هل نسيت ما تعلّمته يا رجل ؟!.. لا شأن لك إطلاقًا بالانعكاسات السياسية لعملك.. رجل المخابرات ينفذ ما يؤمر به فحسب، وليس من المفروض أن يتدخّل فى القرار السياسى، حتى ولو كان خاصًا بمهمته.

كظم (كوربوف) غيظه وضيقه، وهو يقول:

- أعلم هذا يا سيدى.

ثم اندفع مستطردًا، فى شىء من الحدة:

- ولكن من الواضح أن (ستيفان) لا يعلمه.. أو لا يبالى به إطلاقًا.. لقد حسم رؤساؤه الموقف، ووضعونا فى مأزق لا نحسد عليه، فإما أن نسلمهم الرءوس النووية قبل الثامنة والنصف، من صباح الغد، أو نخسر الصفقة إلى الأبد، ويحصل عليها الأمريكيون.. هذا هو الموقف بالتحديد يا سيدى.. ما قولك بشأنه ؟

صمت (زورين) بضع لحظات، ثم أجاب فى حزم:

- فليكن يا (سيرجى).. أعطنى ساعة واحدة لدراسة الأمر، وسأتصل بك بعدها؛ لتحديد موقفنا النهائى.

وأنهى الاتصال، وهو يفكّر فى عمق..

لقد وضعه (ستيفان) فى موقف لا يُحسد عليه..

فى مأزق حقيقى..

إنه لا يقبل فكرة التنازل عن رءوس نووية للغير؛ لأن هذا يفسد خطته، التى تعتمد على حصر الصراع النووى بين (روسيا) و(أمريكا)، بعد أن يستعيد الاتحاد السوفيتى القديم مجده ومكانته.

ولا يمكنه المخاطرة ، فى الوقت ذاته ، بوقوع خطته فى أيدى الأمريكيين ؛ لأنهم سيتدخلون حتمًا لإفسادها ، مهما كلفهم الأمر ، حتى لا يعود الخطر الشيوعى للظهور ثانية ، بعد أن أمنوا بزواله ، وأصبحوا القوة المنفردة على رأس العالم أجمع ..

من الضرورى إذن أن يجد حلاً بديلاً ..

ولكن كيف ؟!..

كيف ؟!

استغرقه التفكير طويلاً ، ثم لم يلبث أن التقط سماعة هاتفه الخاص ، واتصل برقم سرى جديد ، ولم يكد يسمع صوت محدثه ، حتى قال :

- هنا (ز-١) .. التطورات تتداعى بسرعة كبيرة .. أريد تعديلاً جديدًا فى الخطة .. لابد أن تبدأ المرحلة الهجومية خلال أربع وعشرين ساعة فحسب .. لست أدرى كيف !.. إنها مهمتكم .. كلا .. النتائج الأولية لا تعنينى إطلاقًا .. انسفوا المطارات .. مراكز القيادة ، وحتى مقر الرئيس نفسه ، وابدءوا عملية الشرق الأوسط ..

ثم تراجع فى مقعده ، مضيفًا فى حزم :

- أريد أن يتم ضرب الهدف الأول فى هذه العملية ،

قبل السادسة والنصف من صباح الغد .. نعم .. الهدف الأول هو (مصر) .. صاروخان نوويان كبداية .

قالها ، وأنهى الاتصال فى حزم ، وعيناه تتابعان عقارب الساعة ، وهى تمضى .

وتمضى ..

وتمضى ..

* * *



٩ـ مسألة وقت..

مطَّ طبيب المستشفى المركزى فى (جنيف) ، شفتيه فى استهجان ، وعدّل منظاره الطبى فوق أنفه ، وهو يراقب (جيهان) ، التى ارتدت معطفها بالفعل ، وقال مستنكرًا :

ـ خطأ يا سيّدتى .. لقد أصابتك رصاصة ، تسبّبت فى خدش عظمة ترقوتك ، وهذا يحتاج إلى وجودك هنا تحت الملاحظة ، لثمان ساعات على الأقل ، ثم إنه هناك تحقيق الشرطة ، و...

قاطعته فى سرعة :

ـ مستحيل !.. لدى عمل هام ، يمنعنى من البقاء هنا .. ربما فيما بعد .

هتف فى دهشة :

ـ فيما بعد ؟!.. ما الذى يعنيه هذا ؟.. إنك مصابة الآن ، والمفروض أن ..

قاطعته مرة أخرى ، وهى تندفع خارج المكان :

ـ بالطبع .. أنت على حق .. أنا أعترف .. سنناقش هذا عندما نلتقى فى المرة القادمة .. إلى اللقاء .

وقف الطبيب مبهوتًا ، يحدّق فيها بدهشة ، وهى تغادر المستشفى ، وتقفز داخل سيارتها الرياضية الصغيرة ، فابتسم (أدهم) ، وربّت على كتفه ، قائلا :

ـ لا تحاول .. العناد جزء من شخصيتها .

نقل الطبيب نظرته المندهشة إليه ، إلا أن (أدهم) لوّح بيده فى هدوء ، وهو يغادر المكان بدوره ، ودلف إلى مقعد قيادة السيارة ، وأدار محركها قائلا :

ـ كنت قاسية فى التعامل معه .

هزّت (جيهان) كتفها السليمة ، وهى تقول :

ـ إننى أبغض المرض وحياة المستشفيات .

ثم التفتت إليه ، مستطردة :

ـ كما أن المهمة لم تنته بعد ، ولن أتركك تعمل فيها وحدك .

بدت الجدية على ملامحه ، وهو يقول :

ـ المهمة أصبحت معقّدة للغاية ، ولابد من حسمها بأسرع وسيلة ممكنة .

سألته فى اهتمام :

ـ ألديك خطة ما ؟

أومأ برأسه إيجابًا فى صمت ، فاعتدلت تسأله فى اهتمام أكثر :

ـ هل يمكنك أن تشرحها لى ؟

هزّ رأسه نفيًا ، وهو يقول فى حزم :

ـ ليس بعد .

ثم شرد ببصره لحظات ، قبل أن يضيف :

ـ الأمر يحتاج إلى استشارة (القاهرة) أولاً .

انعقد حاجباه فى شدة ، وهى تتطلّع إليه ، بعد أن نطق عبارته الأخيرة ..

فالقرار الذى يحتاج لاستشارة القيادة ، مع رجل مثل (أدهم صبرى) ، هو حتمًا قرار خطير ..

خطير للغاية ..

* * *

« الأمور تطوّرت على نحو غير متوقّع يا (ن ـ ١) ..» ..

نطق مدير المخابرات المصرية هذه العبارة ، فى توتر ملحوظ ، بعد أن استمع إلى (أدهم) جيدًا ، والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يتابع :

ـ إننا نتابع الموقف فى (موسكو) و (واشنطن) ، عن طريق عملاء ، على درجة عالية من السرية ، يغامرون بكشف هويتهم ، نظرًا لحساسية وخطورة الموقف ، ولقد أبلغنا عميلنا فى (واشنطن) أن

المسئولين هناك وافقوا على إيداع مبلغ مليارى دولار ، فى حساب سرى يخصّ تلك المنظمة الغامضة ، مقابل الحصول على الأسطوانة ، أما عميلنا فى (موسكو) ، فيشير إلى احتمال التعجيل بخطوات خطة (زورين) ، أو تعديلها على الأرجح ، بحيث يبدأ الهجوم الشامل فى غضون الساعات القليلة القادمة .

سأل (أدهم) فى اهتمام :

ـ ألا يمكنه الحصول على معلومات أكبر ؟

أجابه المدير :

ـ هذا أقصى ما أمكنه الحصول عليه ؛ فمهمته ليست سهلة أو يسيرة ، إذ أن (واشنطن) تقوم بمفاوضاتها من خلال قنواتها الرسمية ، مما يمنح عميلنا هناك فرصة لمتابعة تطوراتها ، أما الروس ، فمفاوضاتهم تدور من خلال تنظيم سرى ، وهذا يجعل الأمور أكثر صعوبة .

صمت (أدهم) لحظات ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ هذا يعنى ضرورة إنهاء المهمة فى أسرع وقت ممكن .

أجابه المدير فى اهتمام :

ـ هذا صحيح يا (ن ـ ١) ، ولهذا السبب تم تعديل

أهداف العملية ، وأصبح الهدف الرئيسى لها هو إبلاغ الرئيس الروسى بتفاصيل الخطة ، وتدعيم هذا بنسخة من الأسطوانة المدمجة ، التى تحوى هذه التفاصيل ، على أن يتمَ هذا فى أسرع وقت ممكن ، بحيث يمكنهم حصار الموقف ، ومنع تنفيذ الهجوم الشامل ، الذى يستهدف (مصر) فى بدايته .

انعقد حاجبا (أدهم) ، وهو يسأل :

ـ ما المهلة الممنوحة لنا ؛ للوصول إلى الهدف الرئيسى ؟

صمت مدير المخابرات المصرية لحظات ، ثم أجاب فى حزم :

ـ عشر ساعات على أقصى تقدير يا (ن ـ ١) .

ألقى (أدهم) نظرة على عقارب ساعته ، ثم أجاب :

ـ سيتمّ الوصول إلى الهدف الرئيسى قبل الموعد النهائى بإذن الله يا سيّدى .

تنهّد المدير ، وهو يقول :

ـ أنا واثق من أنك ستبذل قصارى جهدك يا (ن ـ ١) .

أنهى (أدهم) المحادثة ، وتراجع فى مقعده ، وهو يفكّر فى عمق ، وعيناه تتطلعان إلى ساعته ..

لقد بدأ سباقًا رهيبًا لتحقيق الهدف الرئيسى للمهمة ..

سباق مع العقارب ..

عقارب الساعة ..

* * *

شعر (ستيفان) بإرهاق حقيقى ، وهو يلتقط سمّاعة هاتفه ، ويستقبل مكالمة (كوربوف) ، قائلاً :

ـ مرحبًا يا مستر (كوربوف) .. أراهن أن لديك جديدًا ، وإلا ما اتصلت بهذه السرعة .

أجابه (كوربوف) فى صرامة :

ـ (موسكو) وافقت على عرضكم النهائى .

انعقد حاجبا (ستيفان) ، وهو يعتدل ، قائلاً فى انفعال :

ـ حقًّا ؟!

ثم استعاد سيطرته على نفسه ، وهو يستطرد فى رصانة :

ـ ومتى يتم تسليمنا الصواريخ ؟

أجابه (كوربوف) :

ـ فى السابعة من صباح الغد ، بتوقيت (جنيف) .. ارسلوا طائرتكم إلى مطارنا العسكرى فى (موسكو) ،

فى السادسة والنصف ، وسيتم شحن الصواريخ بها ، وبعد إقلاعها ، تقومون بتسليمنا الأسطوانة .

أثار هذا الخضوع الشديد قلق (ستيفان) وشكوكه ، فقال فى حذر :

ـ ستحمل الطائرة أحد خبراء الأسلحة النووية ، لفحص الصواريخ قبل شحنها ، وفى حالة شكه فى صلاحيتها ، لن تتم الصفقة .

قال (كوربوف) فى حزم :

ـ اتفقنا .

قالها ، وأنهى الاتصال على نحو حاد ، فجَّر مزيدًا من الشكوك فى أعماق (ستيفان) ، الذى صمت لحظات مفكرًا ، ثم غمغم :

ـ أعتقد أنه من الضرورى أن أستشير القيادة .

التقط سمّاعة هاتف آخر ، وطلب رقمًا سريًا خاصًا ، وما إن سمع صوت محدّثه ، حتى قال فى توتر :

ـ الروس وافقوا على الصفقة بشروطنا .. نعم .. سيتمّ تسليمنا الرءوس النووية فى السابعة من صباح الغد .. نعم .. وافقوا تمامًا .

وصمت بضع لحظات ، ليستمع فى انتباه ، قبل أن يقول :

ـ أنا أيضًا أشعر بالشك ، وهذا سبب اتصالى .. لا .. الأمريكيون لم يتصلوا بعد ، ولكننى أعتقد أنهم سيفعلون .. إنهم أكثر لهفة لإتمام الصفقة .

وعاد إلى صمته قليلاً ، ثم قال :

ـ فليكن .. سأقبل عرض الأمريكيين أيضًا ، ولكن ماذا لو أنهم طلبوا عقد الصفقة فى وقت مبكر ؟.

استمع طويلاً هذه المرة ، قبل أن يقول :

ـ بالتأكيد .. أنا أيضًا أعتقد أنهم لن يبدءوا الحركة مباشرة ، وأنهم سيستغرقون بعض الوقت أولاً ؛ للتأكد من صحة المعلومات الواردة فى الأسطوانة ، قبل أن يبدءوا خطوتهم الأولى ، وفى هذه الأثناء ، نكون قد أنهينا صفقتنا مع الروس ، وضربنا عصفورين بحجر واحد .. هذا عظيم .. عظيم بالفعل .

وأنهى الاتصال ، وهو يطلق زفرة حارة ، بعد أن تبيّن له أن قيادته ذكية وحكيمة ..

وخبيثة ..

* * *

« الأمر يبدو لى شديد التعقيد بالفعل .. »

نطقت (جيهان) هذه العبارة ، وهى تتطلع إلى الخريطة الكبيرة لمدينة (جنيف) ، التى تحتل جزءًا من الحائط ، ثم استدارت إلى (أدهم) مستطردة :



تطلّعت إليه لحظة فى حيرة ، وتمنّت لو أمكنها قراءة أفكاره ..

ـ إننى أتفق معك فى أن الوسيلة الوحيدة للحصول على تلك الأسطوانة المدمجة ، هى الوصول إلى (ستيفان) نفسه ، ولكن هذا يستلزم شرطين أساسيين بالضرورة .. أولهما أن ننجح فى الوصول إليه ، وثانيهما أن نضمن وجود الأسطوانة فى حوزته ، عندما نفعل هذا ، والواقع أن الشرطين أكثر صعوبة من بعضهما ، فلقد رأيت الفيلا بنفسى ، وأدرك جيدًا أنها أشبه بقلعة منيعة ، يكاد يكون اختراقها مستحيلاً .

قال (أدهم) فى هدوء :

ـ هذا لو فكرنا بالأساليب التقليدية .

هزّت كتفيها ، قائلة :

ـ هذا ما فعلته فى البداية .. درست كل الأمور من الناحية التقليدية ، وحاولت أن أجد وسيلة لتجاوز الأسوار المكهربة ، وطاقم الحراسة ، والبوّابات الإليكترونية ، وآلات المراقبة ، وعندما أعيتنى الحيلة ، انتقلت إلى الأساليب غير التقليدية ، إلا أنها لم تضف إلىّ جديدًا يُذكر .

ابتسم قائلاً :

ـ عجبًا !.. لماذا أضافت إلىّ الكثير إذن ؟

تطلّعت إليه لحظة فى حيرة ، وتمنّت لو أمكنها قراءة

أفكاره ، لمعرفة ما يدور فى ذهنه ، إلا أنها لم تلبث أن طرحت هذا جانبًا ، وهى تقول :

ـ فليكن .. وعندما نفترض أنك نجحت فى دخول الفيلا بالفعل .. كيف تضمن وجود الأسطوانة عندئذ ؟..

من أدراك أن (ستيفان) نفسه لن يمكنه الحصول على نسخة منها ، إلا عندما ترى قيادته ضرورة حدوث هذا .

اعتدل (أدهم) ، قائلاً :

ـ هناك لحظة واحدة ، يمكننا أن نضمن وجود نسخة الأسطوانة فيها داخل الفيلا .

سألته فى اهتمام :

ـ وما هى ؟

أشار بسبّابته ، قائلاً :

ـ لحظة إتمام الصفقة ، بين (ستيفان) و (تورنسول) .

انعقد حاجباها فى شدة ، وهى تقول :

ـ هذا صحيح .

ثم استطردت فى اهتمام :

ـ ولكن من المؤكّد أن هذه اللحظة ستكون خاصة جدًا ، ولست أعتقد أن ثالثًا يمكنه حضورها ، فصفقة هائلة كهذه ، ستقتصر حتمًا على طرفيها .. (ستيفان) و (تورنسول) .

تَرَاجع فى مقعده ، وهو يبتسم ، قائلاً :

ـ فى هذه الحالة لابد وأن أصبح أحد الطرفين .

تطلّعت إليه فى حيرة متسائلة بضع لحظات ، ثم هزّت رأسها فى قوة ، قائلة :

ـ آه .. لقد قرأت وسمعت الكثير ، عن قدراتك المدهشة على التنكر ، وأثق تمامًا فى قدرتك على انتحال هيئة (تورنسول) هذا ، وأسلوب حديثه ، وحتى صوته ، ولكن فاتتك نقطة بالغة الأهمية .

سألها فى بساطة :

ـ ما هى ؟!

أجابته فى شىء من التوتر :

ـ أن نظام الأمن فى الفيلا لا يقتصر على فحص الهيئة والصوت .. إنه نظام متطوّر ، يعتمد على أنظمة كمبيوتر بالغة الدقة ، يستحيل خداعها فى هذا المضمار ، بحيث أنه حتى يسمح لك النظام الأمنى بالدخول ، بصفتك الجنرال (جيمى تورنسول) ، فليس هناك من سبيل إلى هذا سوى أن تكون بالفعل الجنرال (جيمى تورنسول) .

بدا عليه التفكير لحظات ، ثم هزّ كتفيه ، قائلاً :

ـ إنهم يفحصونه عند دخوله فحسب ، وليس طوال الوقت .

سألته فى دهشة :

ـ ما الذى تعنيه بهذا ؟

ابتسم ، وهو يقول فى شىء من الاستمتاع والجذل :

ـ أعنى أن القاعدة تثبت صحتها ، فى كل مرة يا عزيزتى .. لا يوجد جهاز أمنى خال من الثغرات تمامًا .. وعلى الرغم من ثقة (ستيفان) ومنظمته فى قوة وقدرات جهازهم الأمنى ، إلا أنه يحوى ثغرة كبيرة ، تكفى لتمرير فيل كامل .

قالها وابتسامته تتسع ، وتزداد جذلاً ، و ...

وغموضًا ..

* * *

أطلق (إيفان) ، من أعماق صدره زفرة حارة ، وهو يلوّح بيده فى عصبية ، قائلا :

ـ لم نعثر له على أدنى أثر .. لقد خرج من ذلك القبر الثلجى ، واختفى تمامًا .

عقد (كوربوف) حاجبيه ، وهو يقول :

ـ أمر طبيعى .. إنه يسعى للفوز فى السباق ، ولن يضع نفسه فى طريقنا مرة أخرى ، حتى يصل إلى خط النهاية .

قالت (أنساتازيا) فى مقت شديد :

ـ على جثتى .

التفت إليها (كوربوف) ، فتابعت فى حدة :

ـ إننى أفضّل الموت ، على أن يربح (أدهم صبرى) هذا السباق .

أجابها (كوربوف) فى صرامة :

ـ لا مجال للأعمال الانتقامية فى عالم المخابرات .. لو أننا نبحث عن (أدهم) ، ونسعى لتدميره ، فهذا لضمان نجاح عمليتنا فحسب، وليس للانتقام الشخصى .

التقى حاجباها ، وهى تقول فى توتر :

ـ عجبًا !!.. يُخيَّلُ إلىَّ أحيانًا أنك معجبٌ بهذا المصرى يا (كوربوف) !

تبادلا نظرة صامتة متحدية لبضع لحظات ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ لا يمكننى إنكار هذا .. أنا معجب به كرجل مخابرات فريد فى طرازه ، حتى لو كان عدوًا ، وهذا لا يمنعنى من السعى لتدميره .. بل ربما كان هذا هو الدافع الرئيسى لهذا .

ابتسمت بسخرية عصبية ، وهى تقول :

ـ الدافع الرئيسى ؟!.. عظيم .. لم أكن أعلم أنك

فيلسوف حكيم يا عزيزى (كوربوف) .. تسعى لقتل الرجل وتدميره ، لشدة إعجابك به !.. نظرية رائعة بحق ، لو أن لها تفسيرًا منطقيًا .

قال فى صرامة :

ـ لو أن عقلك اعتاد العمل ، بدلاً من وحشيتك ، لفهمت الموقف دون أدنى صعوبة يا (أنستازيا) ، فإعجابى برجل مثل (أدهم صبرى) ، يعنى أنه خصم قوى للغاية ، ومن الطبيعى أن يسعى المرء لتدمير خصمه القوى .

تطلّعت إليه فى صمت ، وشفتاها تحملان نفس الابتسامة ، ثم قالت فى حزم :

ـ لو أنك صادق فى حديثك هذا ، فأنا أعرف أين نجد (أدهم صبرى) هذا .

ازداد انعقاد حاجبى (كوربوف) ، فى حين هتف (إيفان) :

ـ تعرفين ؟!.. لماذا لم تخبرينا إذن ؟.. أين هو الآن ؟

أشارت بيدها ، قائلة :

ـ لست أعرف أين هو الآن .

أطلّ الغضب من عينى (كوربوف) ، فى حين تراجع (إيفان) فى دهشة ، فاستدركت فى سرعة :

ـ ولكننى أعرف أين سيكون وقتما نريد .

سألها (كوربوف) :

ـ ماذا تعنين ؟

تراجعت فى مقعدها ، وتألّقت عيناها جذلاً ، وهى تجيب :

ـ أنتما تعلمان أن عالمنا ضيق للغاية ، على الرغم مما يوحى به من اتساع ، والأخبار يمكن أن تنتشر بسرعة البرق ، لو أردنا لها هذا ، ولو أننا أشعنا أننا سنتم الصفقة الليلة ، ولنقل فى الثامنة مساءً مثلاً ، سيتواجد (أدهم) حتمًا إلى جوار فيلا (ستيفان) ؛ لمراقبة الموقف على الأقل ، وبقليل من المهارة منا ، يمكننا العثور عليه ، ومباغتته بانقضاضة عنيفة ، من حيث لا يدرى ، و ...

فرقعت سبّابتها وإبهامها ، دلالة على ما تقصده ، فتطلّع إليها (كوربوف) لحظة فى صمت ، وهتف (إيفان) :

ـ يا لها من خطة !.. هل تعتقدين أن رجلاً مثله ، يمكن أن يقع فى فخ ساذج كهذا ؟!

أجابه (كوربوف) فجأة :

ـ ولِمَ لا ؟!

التفت إليه الاثنان فى آن واحد ، فتابع فى حزم :

- لقد تعلمنا شيئًا كهذا .. عندما يكبر الرجال ، يمكنك الإيقاع بهم بوسائل أكثر بساطة .. هذا لأنهم يكونون عادة شديدى الحذر ، فيما يتعلق بالطرق الذكية والمعقدة ، ولا يتصورون أبدًا أنه من الممكن أن يستخدم أى مخلوق أكثر الأساليب بساطة للإيقاع بهم .

ثم أشار بسبابته ، مضيفًا :

- وهنا تكمن البراعة .

وملأ صدره القوى بنفس عميق ، قبل أن يلتفت إلى (أنساتازيا) ، مكملاً :

- يبدو أننا سنضع خطتك موضع التنفيذ .

تألقت عيناها ببريق قوى ، عندما نطق عبارته ..

بريق يحمل الكثير من الظفر والشراسة ..

والكثير من الغموض ..

الكثير جدًا ..

* * *

استمع (أدهم) جيدًا ، لكل ما نقله إليه أحد العملاء المصريين فى (جنيف) ، عبر أسلاك الهاتف ، قبل أن يقول فى حزم :

- فليكن .. احتفظ بموقعك ، وأبلغنى أية تطورات جديدة .

وأعاد السماعة إلى موضعها ، وهو يتراجع فى مقعده ، ويستغرق فى تفكير عميق ، فاقتربت منه (جيهان) فى خفة ، وسألته فى اهتمام :

- هل من جديد ؟

التفت إليها صامتًا ، ثم قال فى خفوت :

- الروس سيعقدون صفقتهم فى الثامنة والنصف ، من مساء اليوم .

ارتفع حاجباها ، وهى تقول فى دهشة :

- بهذه السرعة ؟!

مط شفتيه ، قائلاً فى شىء من الشرود :

- والمفروض أن تتم عمليتنا قبل هذا الموعد.

قالت فى قلق :

- وكيف يمكن ضمان هذا ؟.. خطتنا تعتمد على موعد عقد الأمريكيين لصفقتهم ، وليس على موعد صفقة الروس !

استرخى فى مقعده بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يقول :

- هذا لو أن الصفقة الروسية صحيحة .

سألته فى حذر :

- هل تعتقد أنه خبر كاذب ؟

اعتدل ، قائلاً :

ـ بل أعتقد أنه خبر مدسوس .. مجرَّد محاولة لتوصيل معلومة ما إلى الخصم ، لقياس رد فعله ، أو لدفعه إلى طريق معدَ مسبقًا .

سألته فى حيرة :

ـ وكيف يمكن التأكُد من هذا ؟

هزَّ رأسه ، قائلاً :

ـ فى غياب المعلومات المؤكَّدة ، لا توجد أيةَ وسيلة لهذا .

وعاد إلى صمته بضع لحظات أخرى ، قبل أن يضيف :

ـ ولكن انتشار الخبر على هذا النحو ، سيؤدى إلى نتيجة ، وهى أن الأمريكيين سيحاولون إتمام صفقتهم بسرعة أكبر .

قالت فى اهتمام :

ـ ربما يفيدنا هذا .

أومأ برأسه ، وقال وكل خلجة من خلجاته تشفَ عن التفكير العميق :

ـ ليس إذا ما أصابهم الفزع من الفريق الروسى ، وقرَّروا عقد صفقتهم قبل حلول الظلام .

ثم ألقى نظرة على ساعته ، قبل أن يضيف :

ـ فهذا كفيل بإفساد خطتنا كلها .

قالها ، وعيناه تتابعان العامل الوحيد ، الذى أصبح يحكم الموقف كله الآن ..

عقارب الساعة .

* * *



١٠ـ الصراع ..

احتقن وجه الجنرال (تورنسول) فى شدة ، وقبضت أصابعه على سمّاعة الهاتف فى قوة ، وهو يقول محتدًا :

ـ الجميع يعرفون هذا يا مستر (ستيفان) .. لقد انتشر الخبر فى المدينة كلها ، كما لو أنه يخص أحد الفنانين ، حتى أنه ليدهشنى ما أصاب أعمال المخابرات من فساد ، فى الآونة الأخيرة .

انعقد حاجبا (ستيفان) ، وهو يقول :

ـ بل الأمر يدهشنى بأكثر مما يدهشك يا جنرال ، فأمر الصفقة محصورة بين أطرافها وحدهم ، وإذاعته تعنى فشل العملية كلها .

قال الجنرال (تورنسول) متوترًا :

ـ ربما بالغت فى القول ، فلقد بلغنا الأمر من خلال أحد عملائنا ، فى المعسكر المضاد ، ولكن وصوله إليه يقلقنا ، ثم إننا نتساءل عن صحته .. هل اتفقتم مع الروس على عقد صفقتهم فى الثامنة والنصف بالفعل ؟

قال (ستيفان) فى حدة :

ـ غير صحيح .. غير صحيح على الإطلاق .. أؤكد لك أنه لم يتم أى اتفاق مع الروس فى هذا الشأن .

صمت (تورنسول) لحظة ، قبل أن يقول :

ـ وكيف يمكننا التأكد من أنك صادق فى تأكيدك هذا ؟

قال (ستيفان) :

ـ لقد أعطيتك كلمتى .

أطلق (تورنسول) ضحكة ساخرة عصبية ، قائلا :

ـ عزيزى (ستيفان) .. أنت تعلم جيدًا أن هذا لا يساوى شيئًا فى عالمنا .

زفر (ستيفان) فى ضيق ، قائلا :

ـ ما التأكيد الذى تنشده إذن ؟

أجابه (تورنسول) على الفور ، وكأنه ينتظر هذا القول بالتحديد :

ـ دعنا نتمّ صفقتنا قبل هذا الموعد .

ساد صمت تام ، على الجانب الآخر للخط ، فتابع (تورنسول) :

ـ ما قولك يا مستر (ستيفان) ؟

استمرّ الصمت لحظات أكثر ، قبل أن يقول (ستيفان) :

ـ كما تشاء يا جنرال . ولكنكم تعرفون شروطنا لعقد الصفقة .

أجابه (تورنسول) :
ـ كل شىء تم كما طلبتم يا مستر (ستيفان) .. لقد أودعنا مليارى دولار فى الحساب السرى لكم ، مع تعهُّدنا بعدم بذل أية جهود لتعقب خط سير المبلغ بعد هذا ، ومن الطبيعى أن النظام المصرفى السويسرى لن يسمح لنا بهذا ، وأعتقد أن السادسة موعد مناسب ، للتيقن من أن كل شىء على ما يرام ، ولِنُتمَّ الصفقة .
قال (ستيفان) فى حزم :
ـ كلا .. السادسة وقت مبكِّر للغاية .. دعنا نتمها فى العاشرة مساءً .
قال (تورنسول) فى حدة صارمة :
ـ كلا يا مستر (ستيفان) .. سنتم الصفقة قبل الثامنة والنصف .
صمت (ستيفان) لحظات أخرى ، ثم قال :
ـ فليكن .. سأنتظرك فى الثامنة .. وحدك .
أجابه (تورنسول) فى ارتياح :
ـ اتفقنا .
ولم يكد (ستيفان) ينهى المحادثة ، حتى انعقد حاجباه فى شدة ، وبدت على ملامحه إمارات التفكير العميق ، فسأله مساعده فى اهتمام :

ـ ماذا يقلقك يا مستر (ستيفان) ؟
بقى (ستيفان) على وضعه لحظات ، وكأنه لم يسمعه ، ثم لم يلبث أن التفت إليه ، قائلاً :
ـ انتشار شائعة إتمام الروس لصفقتهم ، فى الثامنة والنصف مساءً ، أمر مثير للقلق والحيرة .
قال مساعده فى حذر :
ـ لقد انتشرت فى أوساط المخابرات فحسب .. أليس كذلك ؟
هزَّ (ستيفان) كتفيه ، قائلاً :
ـ ولو .. المهم أنها انتشرت ، وهذا يخالف طبيعة سرية أعمال المخابرات عامة ، مما يوحى بوجود سر ما ، وراء هذا الانتشار .
بدا الاهتمام على مساعده ، وهو يسأل :
ـ مثل ماذا ؟
عاد (ستيفان) يهزّ كتفيه ، قائلاً :
ـ محاولة لدفع الأمريكيين للتعجيل بعقد صفقتهم مثلاً ، أو صنع فخ للإيقاع بآخرين .. من يدرى ؟
واستغرقه تفكير عميق لبضع لحظات ، قبل أن يهمس مساعده :
ـ هل تعتقد أن الأمر يحتاج إلى استشارة القيادة ؟

قال (استيفان) فى حدة :

ـ كلا بالطبع .

ثم تراجع فى مقعده ، مستطردًا فى عصبية :

ـ هل نسيت أننى كنت يومًا أحد قيادات المخابرات الفرنسية ، وكانت لى صلاحية إصدار قرارات أكثر خطورة ، دون الرجوع إلى الرياسة ؟

غمغم مساعده :

ـ لم أنس بالتأكيد يا مستر (ستيفان) .

ران على المكان صمت مطبق ، و (ستيفان) يفكر فى عمق ، فى حين خشى مساعده أن يقاطعه بحرف واحد ، حتى التفت إليه ، قائلًا فى حزم :

ـ فليكن .. ستتم الصفقة الأمريكية فى موعدها ، ولكن عليك بمضاعفة الحراسة ونظم الأمن ، ومراقبة الفيلا وما حولها طوال الوقت دون انقطاع ، وألغ من قاموسك كلمة الشك ، واستبدل بها فورًا كلمة الإعدام ، وهذا يعنى أن مجرد الشك كفيل بالتحرك فورًا ، وبأعنف رد فعل ممكن .. هل تفهم ؟

أومأ مساعده برأسه إيجابًا ، وهو يتمتم :

ـ بالتأكيد يا مستر (ستيفان) .. بالتأكيد .

ترك مساعده ينصرف ؛ لتنفيذ الأوامر ، فى حين عاد حاجباه ينعقدان ، وعاد هو للتفكير فى عمق ..

لم تكن بذرة الشك قد فارقته بعد ، وإنما نبتت وانتشرت ، وراحت تسيطر على كيانه كله ، وتلح على عقله فى أن شيئًا ما سيحدث الليلة ..

ولم تفارقه تلك الفكرة ..

لم تفارقه أبدًا ..

* * *

« أمامنا ثلاث ثوان فحسب .. »

أشار (أدهم) بسبابته ، وهو يلقى عبارته هذه فى حزم ، قبل أن يشير إلى الخريطة أمامه ، مستطردًا :

ـ هذا كل ما نستطيع الحصول عليه من وقت ، ما بين قطع التيار الكهربى الرئيسى عن الفيلا ، وبدء عمل المولد الاحتياطى ، والمفروض أن يتم كل شىء خلال هذه الثوانى الثلاث .

تراجعت (جيهان) ، وهى تهز رأسها ، قائلة :

ـ فى رأيى أن هذه الفترة لا تكفى لعمل أى شىء إطلاقًا .

قال (أدهم) فى هدوء :

ـ لا تقلقى نفسك بهذا الأمر .. المهم أن تقومى بعملك على أكمل وجه ، واتركى الباقى لى .

مطت شفتيها ، قائلة :

- فليكن .. سأقبل فكرة الدمية المساعدة هذه مؤقتًا ، وسأناقشك بشأنها بعد انتهاء المهمة ، أما الآن فسأنفذ المطلوب منى .. أنت تريد منى أن أعمل على قطع التيار الكهربى الرئيسى عن الفيلا مرتين .. أليس كذلك ؟

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

- بالضبط .. لقد أوصل أحد عملائنا الكابل الرئيسى للفيلا بجهاز فصل كهربى ، مزوّد بوحدة تحكم عن بعد ، ومن موضعك ، يمكنك قطع التيار الرئيسى عن الفيلا بضغطه زر ، والقيام بعملك الإضافى فى الوقت نفسه .

قالت فى سخرية :

- يا للرفاهية !

تجاهل سخريتها ، وهو يقول فى حزم :

- المهم أن تتحركى بسرعة كبيرة ، بعد إطلاق النار ، وأن تغادرى المكان كله على الفور ، فمن المؤكد أنهم سيفتشون المنطقة كلها بعدها ، ولست أحب أن يعثروا عليك عندئذ .

رفعت أحد حاجبيها ، وهى تقلّد أسلوبه ، قائلة :

- لا تقلق نفسك بهذا الأمر .. المهم أن تقوم بعملك على أكمل وجه ، واترك الباقى لى .

لم يتمالك نفسه من الابتسامة ، وهو يقول :

- سأفعل بالتأكيد .

ثم انتقل إلى رسم تخطيطى للفيلا ، مضيفًا :

- المهم أن نراجع هذه الخطوات بدقة ، ففى المرحلة الأولى ستقومين بقطع التيار ، قبل أن يتجاوز (تورنسول) منطقة الفحص الأمنى ، وفى المرة الثانية عندما يصبح هنا .

غمغمت :

- سأفعل بإذن الله .

ثم رفعت عينيها إليه ، وابتسمت قائلة :

- هل تعلم أن تنكرك مدهش بحق ؟

ابتسم قائلًا :

- إنه تنكر مزدوج ، ومن النادر أن ألجأ إلى هذا ، ولكنه مفيد بالتأكيد .

تراجعت فى مقعدها ، والتقطت نفسًا عميقًا ، وهى تقول :

- ما زالت الخطة تبدو لى مخيفة ، وما زلت أتساءل عما إذا كنت تستطيع استغلال ذلك الوقت الضئيل للغاية فى تنفيذها !

هزّ كتفيه ، قائلًا :

- ليس أمامنا سوى أن نحاول .. إنها فرصتنا الأخيرة .

سألته فى اهتمام :

- ولكن ماذا عن (تورنسول) نفسه ؟.. كيف تضمن أنه سيتحرك بما يتناسب مع خطتنا ؟

هزّ رأسه ، قائلا :

- لا يمكن ضمان هذا أبدًا .

ثم ألقى نظرة على ساعته ، مستطردًا :

- ولكنها السابعة وخمس دقائق الآن ، ولقد اختفت الشمس فى الأفق بالفعل ، ومع الغيوم الكثيفة ، سيسود الظلام بسرعة ، وهذا كل ما نحتاج إليه .

واسترخى فى مقعده ، وكأنه لا يحمل على كاهله أية أعباء ، مستطردًا .

- ومن المؤكد أن (تورنسول) سيبذل قصارى جهده ؛ ليتم عقد الصفقة قبل الثامنة والنصف ، بعد انتشار الشائعة الروسية .

سألته وهى تعتدل فى اهتمام :

- من أطلق هذه الشائعة فى رأيك ؟

ابتسم فى خمول ، مغمغمًا :

- الروس بالطبع .

همّت بقول شىء ما ، عندما ارتفع رنين الهاتف بغتة ، فاعتدل (أدهم) فى نشاط جم ، والتقط سمّاعته قائلا :

- من المتحدث ؟

بدا عليه الاهتمام الشديد ، وهو يستمع إلى محدثه ، ثم سأله :

- هل يرتدى معطفًا ؟.. ما نوعه ولونه بالتحديد ؟

واستمع إلى الجواب فى اهتمام ، قبل أن يقول :

- فليكن ، واصل المراقبة ، حتى إشعار آخر .

وأنهى المحادثة ، وهو يلتفت إلى (جيهان) ، قائلاً :

- نحتاج إلى معطف من طراز (ماكينتوش) ، أزرق اللون ، وله حزام عريض .

قالها ، وهو يلتقط سترته ، ويتجه نحو الباب ، فلحقت به هاتفة :

- فقط ؟!.. أهذا كل ما ربحته من المحادثة ؟

أجابها ، وهما يهبطان فى درجات السلم فى سرعة :

- (تورنسول) غادر منزله الآمن فى معطف مماثل ، ولا ريب أنه يتجه الآن إلى فيلا (ستيفان) ؛ ليتم الصفقة الأمريكية ، وهذه فرصتنا الوحيدة للفوز .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

- والأخيرة .

وكان على حق ..

إنها فرصتهما الوحيدة ..

والأخيرة ..

* * *

أغلق (زورين) عينيه، وتراجع فى مقعده، وعقله يموج كألف بحر عاصف، مع تلك التقلبات العنيفة، التى تعصف بخطته، فى أيامها الأخيرة ..

لقد قضى ما يقرب من عام، ليصنع تنظيمه الشيوعى السرى، ويرتب خطته للاستيلاء على الحكم، بحجة استعادة المجد السوفيتى الزائل، وإعادة الشيوعية إلى العالم ..

كانت هذه هى وسيلته الوحيدة، للقفز إلى مقعد السلطة ..

وسيلته الوحيدة لاستثمار الروح العقائدية، واستغلالها لدفعه إلى ما يريد ..

لم يكن شيوعيًا فى أعماقه ..

بل ولم يكن يميل حتى لتلك النظم، التى تستنزف جهد الفرد بقدر طاقته، ثم لا تمنحه سوى ما لا يكاد يكفى حاجته ..

إنه طموح ..

وطموحه يفوق أحلام كل من حوله ..

ومثل هذا الطموح لا يتناسب قط مع النظم الشيوعية ..

صحيح أنه نجح، فى ظل تلك النظم، فى أن يرتقى بمناصبه، حتى صار أحد الأعضاء البارزين فى المخابرات السوفيتية، ثم لم يلبث أن قفز إلى منصب النائب الأوّل لمدير المخابرات الروسية ..

ولكنه ما زال يطمح إلى المزيد والمزيد ..

ما زال يطمح إلى اعتلاء عرش السلطة فى بلاده ..

وكان من العسير أن يتحقق هذا فى النظام الجديد ..

لذا فقد صنع منظمته السرية ..

استغلّ الغضب والمرارة، اللذين يشعر بهما كل من استفادوا من النظم الشيوعية ثم فقدوا امتيازاتهم مع النظم الانفتاحية، وأقنعهم برغبته فى إحياء الشيوعية، واستعادة المجد السوفيتى، و .. ، و...

وكما يحدث دائمًا، نجحت خطته فى إثارة حماسهم ومشاعرهم، ولعبت على أوتار معتقداتهم واستفادتهم، وأصبح زعيمًا لتنظيم شيوعى سرى، يحمل له الأمل فى القفز إلى أعلى مقاعد السلطة ..

وبعد أن يفعل، لن يكون من العسير عليه أن يتخلص من الجميع بحجج مختلفة، ثم يتخلص فى النهاية من النظام الشيوعى نفسه، ويتبقى له مقعد السلطة ..

وراح يضع خطته ..
وينمقها ..
ويدرسها ..
ثم استعد لوضعها موضع التنفيذ ..
وبدأ عده التنازلى بالفعل ..
ولكن فجأة ، حصلت تلك المنظمة السرية على نسخة من خطته ..
نسخة تكفى لتدمير كل ما فعله ، لو لم ينجح فى استعادتها ..
أو فى تنفيذ مخططه بأقصى سرعة ..
كان غارقًا فى أفكاره ، عندما انتزعته منها دقات منتظمة على باب حجرته ، فاعتدل قائلاً :
ـ ادخل يا (بوريس) .
دلف مساعده الضخم إلى الحجرة ، وهو يقول :
ـ كل شىء على ما يرام يا سيدى .
سأله (زورين) فى اهتمام :
ـ هل بدءوا بالفعل ؟
أجابه (بوريس) :
ـ كل الخطوات تسير وفقًا للخطة المعدلة الجديدة ، والقائد التنفيذى يؤكد أنه لو سار كل شىء على

ما يرام ، حتى السادسة والنصف من صباح الغد ، فلن يصبح بإمكان أى مخلوق منعنا من بلوغ المرحلة الأخيرة ، وبدء الضربة الشاملة .
سرت قشعريرة باردة فى جسد (زورين) ، وهو يغمغم :
ـ حتى السادسة والنصف .
قالها وعيناه معلقتان بحركة عقارب الساعة ..
الفيصل الوحيد فى اللعبة كلها ..
* * *
توقفت سيارة الجنرال (تورنسول) أمام بوابة فيلا (ستيفان) ، فرفع أحد رجال طاقم الحراسة الخارجى جهاز اللاسلكى الخاص به إلى شفتيه ، وهو يقول :
ـ وصلت سيارة الجنرال .
أتاه صوت (ستيفان) نفسه ، قائلاً :
ـ اتبع الإجراءات المعتادة ، فى حالات الطوارئ القصوى .
اتجه الحارس إلى الجنرال (تورنسول) ، قائلاً :
ـ هل تسمح بمغادرة السيارة يا جنرال ؟
أطاعه (تورنسول) دون مناقشة ، ووقف على بعد مترين من السيارة ، التى التف حولها خمسة من

الرجال ، يحملون آلات خاصة للبحث عن الأسلحة والمتفجرات والمعادن ، وراحوا يفحصون كل شبر منها ، ويفتشونها بالطرق التقليدية ، حتى أنه لم يتبقَ فيه سنتيمتر واحد غامض ..

وانتظر (تورنسول) فى ملل ، حتى انتهى فحص سيارته ، قبل أن يشير إليه الحارس ، قائلاً :

- سنقود سيارتك إلى الداخل يا جنرال .. هل تسمح لنا بفحصك شخصيًا .

قال (تورنسول) فى حنق :

- وكم يستغرق هذا .. عامًا أم نصف عام ؟!

ابتسم الرجل قائلاً :

- بما لدينا من أجهزة حديثة ، لن يستغرق الأمر سوى ثوان معدودة .

قالها ، وهو يشير نحو بوّابة صغيرة ، تجاور البوّابة الرئيسية ، فاتجه نحوها الجنرال (تورنسول) ، وهو يقول :

- هل أخلع معطفى .

هزّ الرجل رأسه نفيًا ، وقال :

- لا حاجة بك لهذا .

واصل (تورنسول) سيره نحو بوّابة الفحص ، و ...

وفجأة ، انقطع التيار الكهربى عن المكان كله ..

ومع الظلام الدامس ، الذى أطبق على المكان ، صاح قائد فريق الأمن :

- فليبق كل فى مكانه .

وقبل أن يبدأ حتى صيحته ، كان (أدهم) ينطلق ، من خلف شجرة كبيرة ، على مسافة عشرة أمتار من الفيلا ..

كان قد تسلل إلى مكمنه هذا ، قبل دقائق خمس من وصول (تورنسول) ، وهو يحمل عصا طويلة ، وعندما انقطع التيار الكهربى ، انطلق مع عصاه نحو سور الفيلا ، ثم غرز طرف العصا بالأرض ، ودفع جسده إلى أعلى فى قوة ، فحملته العصا عاليًا ، مع طولها الذى يبلغ أربعة أمتار ، حتى تجاوز ارتفاع السور المحيط بالفيلا ، فتخلّى عن العصا ، ووثب عبر السور ، ليهبط على الجانب الآخر منه ، قبل أن يبدأ المولّد الاحتياطى عمله ، وتسطع الأضواء مرة أخرى فى المكان ..

كانت مبادرة رياضية مدهشة ، يحسده عليها أبطال الألعاب الأوليمبية (*) ، ولقد نجحت فى معاونته على

(*) تعتبر هذه واحدة من الألعاب المعروفة بألعاب الوثب أو القفز ، ويطلق عليها اسم (القفز بالزانة) .



ثم غرز طرف العصا بالأرض ، ودفع جسده إلى أعلى فى قوة ، فحملته العصا عاليًا ، ومع طولها الذى يبلغ أربعة أمتار ..

عبور السور ، متجاوزًا كل نظم ووسائل الأمن المتطورة ، التى أحاطوا بها المكان ..

وفى نفس اللحظة التى سطعت فيها الأضواء فى الفيلا ، كان (أدهم) يعتدل واقفًا ، فى معطفه الأزرق ، المماثل لمعطف (تورنسول) ، والعصا الطويلة تسقط وتختفى وسط الأعشاب المحيطة بالمكان ، بحيث بدا وكأنه أحد أفراد طاقم الحراسة ، الذى انتشر فى حديقة الفيلا ..

أما فى مركز المراقبة ، فقد انعقد حاجبا (ستيفان) ، وهو يقول فى حدة :

— راجعوا كل شىء .. انقطاع التيار هذا لا يبدو طبيعيًا .

أجابه مساعده فى توتر ، وهو يراجع الشاشات كلها :

— كل شىء يبدو على ما يرام .. المولّد الاحتياطى يعمل بعد ثلاث ثوان فحسب ، وهذه الفترة الضئيلة لا تسمح بحدوث أى شىء ، ولقد راجعت الشاشات المراقبة بنفسى ، ولا يوجد أحد حول الأسوار .

تطلّع (ستيفان) إلى الشاشة التى تنقل صورة (تورنسول) ، مغمغمًا :

ـ ربما استغل الأمريكى هذه الثوانى الثلاث ، ليفعل شيئًا ما .

أجابه مساعده ، وهو يهز كتفيه ، وقد استعاد الكثير من الثقة والاطمئنان .

ـ إننا لم نبدأ فحصه بعد ، على أية حال .

أومأ (ستيفان) برأسه موافقا ، وهو يقول :

ـ صدقت .

ثم أضاف فى صرامة :

ـ ولكن يبدو أنه سيخضع لأعقد فحص عرفه ، فى حياته كلها .

بدأت عملية فحص الجنرال (تورنسول) بدقة بالغة بالفعل ، فى نفس الوقت الذى بدأ (أدهم) يتحرك فيه فى بساطة ، محاولاً عدم إثارة انتباه أو شكوك المراقبين ، وتظاهر بفحص وسائل الأمن ومراجعتها ، وهو يتحرك فى بطء نحو مدخل الفيلا نفسها ، وتابعت عيناه حركة آلات التصوير والمراقبة ، وعدساتها تدور فى بطء عبر المكان ، قبل أن يتمتم :

ـ حركة دائرية بسيطة .. قصور آخر فى نظم الأمن ، فهذه الحركة تمنح أى متسلل خمس ثوان على الأقل ، قبل أن تعود إليه آلة المراقبة .

وتوقف فى مكانه ، حتى تجاوزته عدسة آلات المراقبة ، ثم تحرك فى سرعة نحو المدخل ، وفحص قفل الحقيبة الخلفية لسيارة (ستيفان) الكبيرة ، المتوقفة إلى جواره ، وهو يقول :

ـ عظيم .. من حسن حظنا أن (ستيفان) الوغد هذا ما زال تقليديًّا ، ويفضل أن تظل سيارته أمام الباب ، متأهبة دومًا للانطلاق بأقصى سرعة ، إذا ما عقدت الأمور .

قالها ، وبدأ فى معالجة القفل فى سرعة ، حتى بدأت آلات التصوير دورتها نحوه ، فابتعد عن السيارة بضع خطوات ، وأشاح بوجهه عنها ، متظاهرًا بفحص الحديقة ..

ولكن فجأة ، ارتفع صوت من خلفه ، يقول فى صرامة :

ـ ماذا تفعل هنا ؟

استدار إليه (أدهم) فى هدوء ، ولم يكد بصر الرجل يقع على القناع المتقن ، الذى يرتديه ، والذى أبدل ملامحه تمامًا ، حتى قال فى توتر :

ـ من أنت يا رجل ؟.. وكيف دخلت إلى هنا ؟

وبدا من الواضح أن الموقف كله قد اشتعل ..

وفى لحظة واحدة .

* * *

١١ـ وكر الذئاب..

انعقد حاجبا رجل الأمن فى شدة ، وهو يتقدَّم نحو (أدهم) فى صرامة ، ويده تقفز بسرعة إلى مسدسه ، ولكن (أدهم) أشار إليه بصرامة أكبر ، وهو يقول :

ـ صمتًا يا رجل .. لا تفسد الأمر .

أفقدت صرامته الواثقة رجل الأمن الكثير من توتره ، وكسرت حدته على نحو واضح ، وهو يقول :

ـ أى أمر ؟

أشار إليه (أدهم) بالاقتراب ، وهو يقول :

ـ المفروض أننى هنا بصفة سرية ، للتيقُّن من شخصية الزائر الأمريكى .. ألم يبلغك مستر (ستيفان) بهذا ؟

تطلَّع إليه الرجل فى حذر وشك ، واستلَّ مسدسه فى بطء ، قائلًا :

ـ كلَّا .. لم نتلق أية تعليمات بشأنك .

هتف (أدهم) فى غضب مصطنع :

ـ حقًا !.. يا للسخافة !.. يدعون أن لديهم أدق نظام أمنى ، ثم يتصرفون ببيروقراطية مملة .. كيف يمكننى

الدخول إلى هنا بربك ، لو لم يكن من المسموح لى أن أفعل ؟

انعقد حاجبا الرجل لحظة ، ثم هزَّ رأسه ، مغمغمًا :

ـ لا يوجد سبيل لهذا .

لوَّح (أدهم) بذراعيه ، هاتفًا :

ـ أرأيت !

شعر الرجل بالاطمئنان إلى حد ما ، بعد العبارة الأخيرة ، إلا أنه أشار بيده ، قائلًا :

ـ ولكن الأوامر تحتم الحصول على تأكيد من المراقبة .

قال (أدهم) فى حماس :

ـ بالتأكيد .. هذا حقك .

ثم أشار إلى أسفل سيارة (ستيفان) ، مستطردًا :

ـ أخبرهم أيضًا عن هذا الشىء .

كانت عيناه تتابعان عدسة آلة المراقبة ، فى تلك اللحظة ، وهى تكمل دورتها بعيدًا عنه ، فى نفس الوقت الذى انحنى فيه الرجل ، ليلقى نظرة أسفل السيارة ، مغمغمًا :

ـ أى شىء ؟

هوى (أدهم) على أنفه بلكمة قوية ، قائلًا :

ـ هذا .

ثم أعقب لكمته بأخرى على مؤخرة عنقة ، أسقطته فاقد الوعى على الفور ، فدفعه بسرعة أسفل السيارة ، واعتدل واقفًا فى هدوء ، وابتعد عنها بضع خطوات ، قبل أن تعود عدسة آلة المراقبة إليه ، وهو يغمغم :

ـ فضولك صنع بك هذا .

وتحرك فى هدوء ، بضع لحظات أخرى ، حتى ابتعدت العدسة عن موقعه ، فاندفع نحو السيارة ، وأكمل معالجة قفل حقيبتها الخلفية ، حتى استجاب له ، فابتسم مغمغمًا :

ـ الآن يحين دورك يا زميلتى الجديدة .

كان (تورنسول) قد أنهى عملية الفحص فى هذه اللحظة ، بعد أن عبر بوابة إليكترونية ، للتأكد من أنه لا يحمل أية أسلحة ، ثم مر أمام شاشة لأشعة (رونتجن) ، للبحث عن أسلحة أو متفجرات بلاستيكية ، ثم تم فحص بصماته بوسائل إليكترونية ، وفحصت الأشعة فوق البنفسجية وجهه ؛ للاطمئنان إلى أنه لا يرتدى أية أقنعة ..

وعندما انتهى من كل هذا ، كان يقول فى حنق :

ـ ما الداعى لكل هذا ؟!.. لقد حصلتم على نقودكم بالفعل ، وكل ما أريده هو نسخة الأسطوانة .

أجابه (ستيفان) ، عبر جهاز اتصال صغير :

ـ اعذرنا يا جنرال .. لابد أن نتأكد من أن كل شىء يسير على ما يرام .. ماذا لو أحدهم انتحل شخصيتك ، فى محاولة للاستيلاء على تلك الأسطوانة ؟

قال (تورنسول) فى حنق :

ـ لا أحد يمكنه انتحال شخصيتى بهذه الدقة ، ثم إننى لن أحمل تلك الأسطوانة لمتر واحد خارج المكان .

قال (ستيفان) فى برود مستفز :

ـ سامحنا مرة أخرى يا جنرال ، وتفضل بالدخول .. أنا فى انتظارك .

تقدم (تورنسول) عبر الحديقة ، وسط اثنين من رجال الأمن ، وهو يهمهم بعبارات ساخطة ، ولم يكد يصل إلى مدخل الفيلا ، حتى تمتم (أدهم) :

ـ الآن يا (جيهان) .. الآن .

كان التيار الرئيسى قد عاد بعد انقطاعه بدقيقة واحدة ، مما استتبع فصل المولد الاحتياطى ، ولكن (جيهان) ضغطت زر جهاز التحكم الآلى لفصل التيار ، فى نفس اللحظة التى نطق فيها (أدهم) عبارته ، وكأنها سمعته يهمس بها ..

وانقطع التيار للمرة الثانية ..

وفى هذه المرة أيضا ، كان أمام (أدهم) ثلاث ثوان فحسب ، قبل أن يعمل المولد الاحتياطى ..

وبسرعة البرق ، فتح (أدهم) الحقيبة الخلفية لسيارة (ستيفان) ، ثم وثب نحو (تورنسول) ، الذى يهتف :

ـ ماذا يحدث الليلة ؟

ومع آخر حروف كلمات الجنرال الأمريكى ، انفجرت قبضة (أدهم) فى وجهه ..

وفى اللحظة نفسها تقريبا ، أطلقت (جيهان) رصاصات مدفعها الآلى ..

ومع الاضطراب المباغت ، الذى ساد المكان ، حمل (أدهم) (تورنسول) ، وألقاه داخل حقيبة سيارة (ستيفان) ، ثم انتزع القناع الذى يرتديه ، وألقاه إلى جوار جسد الجنرال الأمريكى ، وأغلق حقيبة السيارة ، ثم صاح مقلدًا صوت (تورنسول) بدقة مذهلة :

ـ ماذا يحدث بالله عليكم ؟

ومع آخر حروف كلماته ، سطعت أضواء المولد الاحتياطى ، واندفع رجال الأمن نحوه ، فى محاولة لحمايته ، وهم يظنونه الجنرال (تورنسول) ..

ولا يمكن لأى مخلوق أن يلومهم على هذا ..

لقد وجدوا أمامهم نسخة طبق الأصل من (تورنسول) ، فى ملامحه ، وزيه ، وحتى صوته ؛ فالقناع الذى كان يرتديه (أدهم) ، تحت القناع الذى انتزعه ، كان يحمل وجه (تورنسول) ..

وبسرعة تليق بالمحترفين ، حمل الرجال (أدهم) ، واندفعوا به نحو الفيلا ، وهو يصرخ مقلدًا (تورنسول) :

ـ إنهم الروس .. أراهن على أنهم الروس .. إنهم يحاولون اغتيالى لإفساد الصفقة .

اندفع نحوه (ستيفان) ، هاتفًا :

ـ مستحيل !.. لا يمكن أن يكونوا الروس .. إنهم لا يعلمون أن ..

ولم يكمل عبارته ، وإنما صاح برجاله :

ـ فتشوا المنطقة كلها ، واقتلوا كل من يراودكم الشك فى أمره .

كان إطلاق النيران قد توقف ، فاندفع طاقم الأمن خارج الفيلا ، لتنفيذ أوامر (ستيفان) ، فى حين راح (أدهم) يلوح بذراعه ، هاتفًا :

ـ أعطنا الأسطوانة يا رجل .. لقد حصلتم على نقودكم .. أعطنا الأسطوانة فينتهى كل شىء .

جذبه (ستيفان) نحو حجرته ، هاتفا :
ـ اصمت يا رجل .. ليس من المفروض أن تصرح بهذا .
دلف (أدهم) إلى حجرة (ستيفان) ، الذى أغلق الباب خلفهما فى إحكام ، مستطردا فى حنق :
ـ هذا سيفسد كل شىء .
جلس (أدهم) على أول مقعد صادفه ، وتظاهر بأنه يلهث منفعلا ، وهو يقول :
ـ ولماذا ؟!.. إننا نتم صفقتنا بشروطكم .. أليس كذلك ؟!
انعقد حاجبا (ستيفان) دون أن ينبس ببنت شفة ، ثم ألقى جسده على مقعده الوثير خلف مكتبه ، قائلا :
ـ ليس من المفروض أن يعلم الجميع أننا سنتم صفقتنا .. المفروض أن يتصوروا أنها مرحلة من مراحل التفاوض فحسب .
مط (أدهم) شفتيه ، كما يفعل الجنرال (تورنسول) فى المعتاد ، وهو يقول :
ـ فليكن .. المهم أن نتم الصفقة .. أين نسخة الأسطوانة ؟
قال (ستيفان) فى بطء :

ـ لا تتعجل يا جنرال .. ستحصل عليها بالتأكيد .
وأنصت قليلا ، قبل أن يضيف :
ـ يبدو أن إطلاق النار لم يستمر طويلا .
تنهد (أدهم) ، وقال فى ازدراء :
ـ قلت لك : إنها محاولة روسية سخيفة .
أومأ (ستيفان) برأسه موافقا ، ثم ضغط زر جهاز الاتصال أمامه ، وقال :
ـ هل عثرتم على شىء .
أجابه مساعده :
ـ عثرنا على بندقية مزودة بمنظار مقرب ، وجهاز تحكم عن بعد ، ولكننا لم نعثر على أى شخص .
شعر (أدهم) بالارتياح لسماعه هذا ، وأدرك أن (جيهان) قد أطاعت أوامره ، ونفذت دورها فى دقة ، ثم غادرت موقعها فى سرعة ، ولكنه ، وهو فى شخصية (تورنسول) ، تظاهر بالغضب والحنق ، صائحا :
ـ ماذا يعنى بأنهم لم يعثروا على أى شخص ؟.. هل هرب الفاعل بهذه السهولة ؟
ابتسم (ستيفان) ، قائلا :
ـ دعه يهرب يا جنرال .. ما الذى نريده منه ؟

مطّ شفتيه مرة أخرى ، مغمغمًا :

ـ نعم .. ما الذى نريده منه ؟

التقط (ستيفان) هاتفه ، وقال وهو يضغط أزراره :

ـ المهم الآن أن تحصل على نسخة الأسطوانة .

حاول (أدهم) أن يلتقط الرقم ، إلا أن (ستيفان) كان حريصًا على إخفاء أصابعه جيدًا ، وكأنه يتوقّع مثل هذه المحاولة ، ولقد انتظر هذا الأخير بضع لحظات ، ثم اعتدل قائلاً فى احترام :

ـ الجنرال (تورنسول) هنا .

وصمت لحظات ، قبل أن يضيف :

ـ بالطبع يا سيّدتى .. أنا مستعد لاستقبال النسخة .

انعقد حاجبا (أدهم) فى شدة ، وهو يسمع الجزء الأوّل من عبارة (ستيفان) الأخيرة ..

بالطبع يا سيّدتى .. !!..

إذن فهذه المنظمة تعمل تحت قيادة امرأة !!..

امرأة داهية ، تمتلك الخبرة والحنكة ، وقوة الشخصية اللازمة لقيادة منظمة تجسسية كبيرة ..

امرأة من طراز خاص ..

امرأة مثلها ..

وخفق قلبه فى عنف ، وفكرة مجنونة تقفز إلى

رأسه ، وتعيد إلى ذهنه ذكرى مؤلمة ، بذل قصارى جهده لنسيانها ..

ومن أعماق أعماقه ، اتمنى لو انقضّ على (ستيفان) ، وانتزع منه الهاتف ، ليسمع صوتها ، ولو لحظة واحدة ..

ولكن هذا كان كفيلاً بإفساد العملية كلها ، بعد أن بلغت مرحلتها الأخيرة ..

وبإرادة فولاذية ، تفوق قدرة أى شخص عادى ، تماسك (أدهم) ..

تماسك مقاومًا رغبته تلك ، وهو يتابع أصابع (ستيفان) ، التى تضغط أزرار الكمبيوتر ، ثم تدس أسطوانة مدمجة خالية ، فى التجويف الخاص بها ، فى الجهاز الناسخ الحديث للأسطوانات المدمجة ..

وفى هدوء ، راحت المعلومات تنتقل عبر الهاتف ، إلى الأسطوانة الجديدة ، حتى أعلن الكمبيوتر أن النسخ قد اكتمل ..

وبابتسامة باردة ، قال (ستيفان) عبر الهاتف :

ـ كل شىء على ما يرام يا سيّدتى .. لقد تأكّدت بنفسى بالطبع .. لا بأس .. يمكنك إجراء الاختبار الأخير ، قبل تسليمه النسخة .

ثم التفت إلى (أدهم) ، وابتسم قائلاً :

ـ اضغط هذا الزر هناك يا جنرال .. معذرة ، فيداى مشغولتان كما ترى .

كان عقل (أدهم) مشغول بشدة ، بهوية زعيمة المنظمة ، التى تتحدث عبر الهاتف ، فضغط الزر بتلقائية ، و ...

وفجأة ، أطلق جهاز الكمبيوتر أزيزًا قويًا ، وسمع (أدهم) صوتًا أنثويًا يصرخ ، عبر الهاتف :

ـ يا للشيطان !.. إنه هو .. نفذ خطة الطوارئ القصوى على الفور .

انتفض جسد (ستيفان) فى عنف ، وأدار عينيه فى ذهول إلى (أدهم) ، الذى انتبه فى هذه اللحظة فقط إلى أن ذلك الزر ، الذى طلب منه (ستيفان) ضغطه ، لم يكن سوى وسيلة لفحص بصمة سبابته ، ونقلها عبر الهاتف إلى جهاز كمبيوتر آخر ، فى مكان ما ، أمكنه تصنيفها فى سرعة مذهلة ، وتحديد هويته على الفور ..

وعلى الرغم من أنه لم يستطع تمييز ذلك الصوت الأنثوى جيدًا ، وهو ينطلق عبر الهاتف ، إلا أن قنبلة الانفعال تفجرت فى أعماقه ، وجعلته يطرح كل شىء

جانبًا ، وينقض على جهاز نسخ الأسطوانات المدمجة ، وينتزع منه نسخة الأسطوانة ، و (ستيفان) يختطف مسدسه ، صائحًا :

ـ مستحيل .. كيف وصلت إلى هنا ؟!

هوى (أدهم) على وجهه بجهاز النسخ ، هاتفًا :

ـ بمعاونتك أيها الغبى .

سقط (ستيفان) فى عنف ، وسقط معه جهاز الكمبيوتر ، فى نفس اللحظة التى انطلقت فيها صفارات الإنذار فى المكان كله ، كما لو أن تلك الزعيمة تتصل بالجهاز الأمنى للفيلا بوسيلة ما ..

ثم انطلق صوت آلى ما يقول :

ـ العد التنازلى للتفجير الذاتى .. خمس ثوان .. أربع .. ثلاث ..

وأدرك (أدهم) فى تلك اللحظة ، طبيعة خطة الطوارئ القصوى ..

إنها تدمير كل شىء بلا تردد ..

وبلا رحمة ..

* * *

من الطبيعى ألا نكرر الإشارة هنا ، إلى تلك السمة المدهشة ، التى يتميز بها (أدهم صبرى) على أقرانه ..

سرعة الاستجابة الفائقة ..

فالموقف نفسه يشرح هذا الأمر في وضوح شديد ، لا يحتاج إلى أية إيضاحات إضافية ..

لقد انطلق إنذار التدمير الذاتى ، معلنًا مهلة قدرها ثوان خمس ، قبل الانفجار ..

وفى اللحظة نفسها ، انطلق إنذار آخر فى رأس (أدهم) ..

إنذار الخطر ..

وبسرعة مذهلة ، قدَّر عقله الموقف كله ..

إنه داخل حجرة (ستيفان) ، التى ستنفجر مع المبنى كله ، بعد ثوان معدودة ، وجرس الإنذار ينطلق فى المكان ، بعد أن حصل على نسخة الأسطوانة ، التى يسعى خلفها ، منذ بدأت مهمته ..

وكانت الأولوية للحفاظ على نسخة الأسطوانة ..

على الوسيلة الوحيدة لحماية أمن وسلامة الوطن ..

وبسرعة البرق ، اختطف علبة من علب الأسطوانات المدمجة ، ووضع داخلها الأسطوانة ، وهو يندفع نحو النافذة ، ويثب نحو زجاجها بكل قوته ..

وتحطَّم الزجاج مع ثقله وقوة اندفاعه ، وهوى جسده من الطابق الثانى ، و ...

ومن خلفه ، دوى الانفجار ..

انفجرت حجرة (ستيفان) أولًا ، ثم أعقبتها حجرات الفيلا كلها ، فى تتابع سريع ..

وعندما هبط (أدهم) على قدميه ، فى حديقة الفيلا ، كان الجميع يعدون ويجرون فى كل اتجاه ، وقد فقدوا نظامهم وترابطهم ..

وانتزع (أدهم) قناع (تورنسول) عن وجهه ، وهو يعدو محاولًا بلوغ بوَّابة الفيلا ، ولكن أحد الرجال اعترض طريقه ، وهو يصوِّب إليه مدفعه الآلى ، صائحًا :

ـ إلى أين يا هذا ؟.. كيف دخلت إلى هنا ؟

لم يتوقَّف (أدهم) عن العدو ، وإنما وثب إلى أعلى ، وركل المدفع من يد الرجل ، هاتفًا :

ـ أنا فى طريقى إلى الخارج .

ثم التقط المدفع فى الهواء ، وهوى على فك الرجل بلكمة ساحقة ، مستطردًا :

ـ ألديك مانع ؟

سقط الرجل أرضًا ، ولكن زملاءه لمحوا ما حدث ، وصاح أحدهم ، وهو يشير إلى (أدهم) :

ـ ها هو ذا المسئول عما حدث .

ولم يكد يتمّ صيحته ، حتى استدارت فوهات المدافع الآلية كلها إليه ، و ...

ودوى انفجار آخر مباغت ..

انفجار أطاح ببوّابة الفيلا ، وجعل الجميع يلتفتون إليه ، مما منح (أدهم) فرصة نادرة ، أطلق خلالها رصاصات مدفعه فى مهارة مدهشة ، ليطيح بالمدافع الآلية من أيدى الرجال ..

ولكن النيران انطلقت من مصدر آخر ، وراحت تحصد الرجال بلا رحمة ..

ومع انفجار ثالث ، تشتّت الجميع بلا ضابط أو رابط ..

وارتفع حاجبا (أدهم) فى دهشة ، ثم عادا ينعقدان فى شدة ، وعقله يحمل تساؤلاً مقلقاً ..

من الذى اقتحم الصراع بغتة ، وراح يطلق النيران على هذا النحو ؟!..

من ؟!..

ولم يكد التساؤل ينطلق فى عقله ، حتى برز رجلان ، يحمل كل منهما مدفعه الآلى ، وهتف أحدهما ، عندما وقعت عيناه عليه :

- يا للشيطان !.. انظر من هناك أيها الزعيم !

ومع صيحته ، تعرّف (أدهم) الرجلين على الفور ..

لقد كانا اثنين من المحترفين ..

آخر اثنين فى فريق (تورنسول) ..

فريق الذئاب ..

* * *

على الرغم مما يعتمل فى نفسها ، نفذت (جيهان) أوامر (أدهم) بمنتهى الدقة ..

لقد استخدمت جهاز التحكم عن بعد (الريموت كنترول) ؛ لقطع التيار الكهربى عن الفيلا فى المرة الأولى ، وراح قلبها يخفق فى عنف ، خلال الثوانى الثلاث ، التى انقضت حتى بدأ المولّد الاحتياطى عمله ..

ومن أعمق أعماقها ، هتفت :

- ساعده يا إلهى !.. ساعده .

كانت تدرك قوته ومهارته على تنفيذ ذلك الجزء من الخطة ، إلا أن ذلك الحب ، الذى تكنه له فى أعماقها ، جعلها ترتجف خوفاً عليه ، وتتمنى من أعماق أعماقها أن ينجو وينجح ..

وعندما سطعت الأضواء مرة أخرى ، رفعت منظارها المقرّب إلى عينيها فى لهفة ، لتلقى نظرة على المكان ، ثم تنهّدت فى ارتياح ، عندما وقع بصرها عليه ..

كان يجول فى المكان ، بذلك القناع الذى صنعه وارتداه فى المنزل الآمن الأخير ، والذى بدا لها متقنًا بشدة ..

وعاد قلبها يخفق فى قوة ، وهى تتابعه فى اهتمام ، وكاد يسقط تحت قدميها ، عندما واجهه رجل الأمن ، ثم هتفت فى حرارة ، عندما أنهى الموقف ، ودفعه تحت السيارة وقالت لنفسها :

- كنت أعلم أنك ستفعلها يا (أدهم) .. كنت أعلم أنك لها .

ومسحت دمعة انفعال ، ترقرقت من عينيها ، قبل أن تتابع الموقف بمنتهى الاهتمام والانتباه ، استعدادًا لتنفيذ الجزء الثانى من الخطة ..

وعندما أصبح (تورنسول) أمام السيارة ، وعلى مسافة مترين فحسب من (أدهم) ، ضغطت زر جهاز التحكم عن بعد ثانية ، وفصلت التيار الكهربى عن الفيلا ..

ومرة أخرى ، خفق قلبها فى عنف ، ولكنها قاومت خفقانه ، وهى تلتقط البندقية المزودة بالمنظار المقرب ، المجهز للرؤية الليلية ، وتطلق النار .

أطلقت خمس طلقات فحسب ، ثم ألقت البندقية وجهاز

التحكم عن بعد ، وانطلقت تعدو مبتعدة ، تبعًا لأوامر (أدهم) ، وقلبها ينبض فى قوة ، ولسانها يكرر :

- ساعده يا إلهى !.. ساعده .

قفزت داخل سيارتها الرياضية ، وانطلقت بها مبتعدة ، ومقاومة رغبة عارمة فى البقاء ، أو العودة لمؤازرته ، حتى أصبحت على مسافة كيلومترين من الفيلا ، فأوقفت السيارة ، وأخرجت منظارها المقرب ، لتراقب الموقف من بعيد ..

وبدت لها عقارب الساعة وكأنما تجمدت ، أو أصابها عاهة عجيبة ، جعلت الثوانى تمضى كالدقائق ، والدقائق تدوم لساعات وساعات ، قبل أن يدوى الانفجار بغتة ..

ومع الانفجار ، انتفض جسدها فى عنف ، وهتفت :

- يا إلهى !.. (أدهم) .

وقفزت مرة ثانية داخل سيارتها ، وأدارت محركها ، و ..

وفجأة ، فتح أحدهم باب السيارة المقابل ، وصوب إليها مسدسًا قويًا ، وهو يقول فى سخرية ، بفرنسية ذات لكنة شرقية :

- يا للمصادفة !.. انظروا من لدينا هنا !

استدارت إلى مصدر الصوت بسرعة ، فوقع بصرها على (إيفان) ، الذى استطرد ساخرًا :

ـ مرحبًا يا جميلتى .. ستسعد زميلتنا (أنستازيا) كثيرًا لعثورنا عليك .

ضغطت (جيهان) دوّاسة الوقود بغتة ، وهى تقول :

ـ أبلغها تحياتى إذن .

انطلقت بها السيارة بغتة ، وارتطم بابها بيد (إيفان) ، فأسقط مسدسه ، وهو يهتف :

ـ (أنستازيا) .. أوقفيها .

فوجئت (جيهان) بالروسية الفاتنة تقفز أمامها ، وتصوّب إليها مسدسها ، فأحنت رأسها فى سرعة ، وانحرفت بالسيارة فى حركة حادة ، وسمعت الرصاصات تصيب الزجاج فوق رأسها ، ثم سمعت صوت (كوربوف) يقول فى صرامة :

ـ اتركوها لى .

ومع انطلاق الرصاصات التالية ، انفجر إطاران من السيارة فى عنف ، فمالت على نحو مخيف ، ثم دارت حول نفسها وسط الثلوج ، وتوقّفت تمامًا ..

وفى هذه المرة ، وجدت (جيهان) ثلاثة مسدسات مصوبة إلى رأسها ، وأدركت أنه لم يعد هناك أمل فى الفرار .. أدنى أمل ..

* * *

١٢ ـ مواجهة ..

على الرغم من أن الفيلا رقم (١٠٣) ، التى يقيم فيها (ستيفان) ، كانت بالفعل أشبه بقلعة حصينة ، يستحيل اختراقها تقريبًا ، إلا أن سلسلة الانفجارات ، التى تتابعت عبر حجراتها ، وامتدّت إلى سورها الضخم ، أحالتها فى دقائق معدودة إلى حطام يثير الرثاء ، ودفعت من تبقّى على قيد الحياة من حراسها ورجال أمنها ، إلى الفرار بأقصى سرعة ، والبحث عن وسيلة للنجاة ، قبل أن يطيح به انفجار آخر ، أو يقع فى قبضة رجال الشرطة ، الذين سيهرعون حتمًا إلى المكان ، بعد الضجة الهائلة ، التى أثارتها الانفجارات..

والعجيب أن أحد هذه الانفجارات أطاح بسيارة (ستيفان) ، التى انقلبت على جانبها ، وانفتحت حقيبتها ، ليتدحرج منها (تورنسول) حيًا ، وقد استعاد وعيه ، ولم يكد يلمح رجليه ، وهما يواجهان (أدهم) ، حتى صرخ بكل ما تفجّر فى أعماقه من انفعالات :

ـ اقتلاه .. اقتلاه على الفور .

ولم يكن الرجلان بحاجة لصرخته ..

لقد أطلقا النار على (أدهم) فور رؤيته ..

وألقى (أدهم) نفسه أرضًا ، وهو يطلق نيران مدفعه ..

وفى هذه المرة ، لم يحاول التصويب على أسلحة الرجلين ..

لقد أطلق النار عليهما مباشرة ..

وأطاحت رصاصاته بالرجل الأول ، فى حين قفز الزعيم يحتمى بجزء متهدّم من السور ، وهو يواصل إطلاق رصاصاته نحو (أدهم) ، الذى انطلق يعدو ، باحثًا عما يحتمى به بدوره ..

ومع النيران المشتعلة فى حطام الفيلا ، والرصاصات التى تتناثر حوله ، استعاد ذهن (أدهم) ذكرياته القديمة ..

ذكريات عمله فى القوات الخاصة ، قبيل حرب أكتوبر ، عام ١٩٧٣م (*) ..

وبكل غضبه وانفعاله ، صرخ (تورنسول) :

ـ اقتله يا رجل .. اقتله .

(*) راجع قصة (الخطوة الأولى) .. المغامرة رقم (٣١) .

كان (أدهم) ينطلق بأقصى سرعته ، وفى خط متعرّج بشدة ، حتى أن الزعيم عجز عن إصابته ، على الرغم من مهارته ، ومن كونه محترفا ، فصاح فى غضب شديد :

ـ اقتله أنت لو استطعت .

انقضّ (تورنسول) على جثة أحد رجال الأمن ، الذين لقوا مصرعهم ، وانتزع مدفعه فى غضب ، هاتفا :

ـ سأفعل أيها الوغد .. سأفعل .

وراح يطلق النار على (أدهم) فى جنون ..

وشعر (أدهم) برصاصة تخترق فخذه ، وأخرى تحتكّ بجانبه ، ولكنه لم يتوقّف ، وإنما قفز يحتمى بجزء من السور ، وصوب مدفعه إلى (تورنسول) ، قائلاً :

ـ معذرة يا جنرال .. خسرت فرصتك فى النجاة .

وضغط زناد مدفعه ..

ولكن رصاصة واحدة لم تنطلق ..

وفى ظفر جنونى ، صرخ الجنرال (تورنسول) :

ـ لقد خسر .. فقد سلاحه .. خسر المعركة .

قالها ، وراح يضحك فى شدة ، ونيران مدفعه



(أدهم) يختبئ خلف قطعة من السور المتهدّم ، وقد نفدت ذخيرة مدفعه تمامًا ..

لا تتوقف عن الانطلاق ، وتنهمر على ذلك الجزء الذى يحتمى فيه (أدهم) كالمطر ، فى حين خرج الزعيم من مكمنه ، وهو يقول فى شراسة :

- نعم .. خسر معركته .

وانطلق نحو البقعة ، التى يختفى خلفها (أدهم) ، وقد اتخذ قرارًا واحدًا لا رجعة فيه ..

أن يقتل (أدهم صبرى) ..

وبأى ثمن ..

* * *

كان الموقف دقيقًا بحق ..

(أدهم) يختبئ خلف قطعة من السور المتهدّم ، وقد نفدت ذخيرة مدفعه تمامًا ، و (تورنسول) يطلق عليه نيران مدفعه بلا توقّف ، فى حين ينقضُ عليه زعيم المحترفين ، ليفرغ رصاصات مدفعه فى رأسه ..

ودارت عينا (أدهم) فيما حوله ، بحثًا عن وسيلة للنجاة ..

واستقرتا عند جثة أحد رجال أمن الفيلا ، على قيد متر واحد منه ..

ولم يكن هناك سلاح إلى جوار الجثة ..

فقط جثة الرجل ..

وصرخ زعيم المحترفين :

ـ بلغ تحياتى لرفاقك فى الجحيم أيها المصرى .

وفجأة ، وثب (أدهم) نحو جثة رجل الأمن ، ورفعها ليصنع منها درعًا بشريًا ، وانقضَّ على الرجل ، هاتفًا :

ـ هذا مستحيل أيها الوغد ، فكل رفاقى فى الجنة ، بإذن الله .

كانت مبادرة مباغتة ، تراجع لها الزعيم فى دهشة ، وهو يهتف :

ـ اللعنة !

وأطلق رصاصات مدفعه فى غزارة ، فى محاولة لإيقاف (أدهم) ، الذى ينقضّ عليه بكل قوته ..

ولكن جثة رجل الأمن الصريع تلقَّت كل الرصاصات ..

رصاصات (تورنسول) ، ورصاصات زعيم المحترفين ..

ثم توقَّف مدفع (تورنسول) ، بعد نفاد رصاصاته ، فصاح فى غضب ، وهو يلوِّح به فى حنق :

ـ أريد مدفعًا آخر .. أى مدفع .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان (أدهم) قد بلغ زعيم المحترفين ، الذى تراجع أمام انقضاضته المدهشة ، هاتفًا :

ـ مستحيل !.. لا يمكنك أن ..

أزاح (أدهم) جثة رجل الأمن جانبًا ، ليبتر عبارة الزعيم بلكمة كالقنبلة فى أنفه ، ثم يدور حول نفسه ، ويقبض على يده الممسكة بالمدفع ، ويلويها فى سرعة ، قبل أن يحمل الرجل ، ويلقى به أرضًا فى عنف ..

وانقضَّ (تورنسول) على (أدهم) ، صارخًا :

ـ ستدفع الثمن .

وحاول أن يهوى بكعب بندقيته على رأس (أدهم) ، إلا أن هذا الأخير تراجع بحركة رشيقة ، متفاديًا الضربة ، ثم لكم (تورنسول) فى معدته ، قائلاً :

ـ لم يعد هذا يناسبك يا جنرال .

وكال له لكمة أخرى فى أنفه ، مستطردًا :

ـ خذ بنصيحتى ، وتقاعد .

ثم أنهى القتال معه بلكمة مباشرة فى فكه ، مضيفًا :

ـ وستكون أكثر خطواتك براعة .

سقط الجنرال فاقد الوعى ، فى نفس اللحظة التى وثب فيها زعيم المحترفين ، واقفًا على قدميه ، وهو يقول فى غضب :

ـ لا أحد يربح دائمًا أيها المصرى .

ثم استلّ خنجرًا ماضيًا من حزامه ، مستطردًا :
ـ وخاصة عندما يواجهنى بساق مصابة .
قالها ، وهو يهوى بخنجره على صدر (أدهم) ، الذى ترك جسده يسقط فى مرونة ، ثم ركل ساق الزعيم فى قوة ، قائلاً :
ـ دعنا نجعل القتال متعادلاً إذن .
فقد الزعيم توازنه ، عندما أصابت طعنته الفراغ ، ومع ضربة (أدهم) القوية ، وجد نفسه يسقط على وجهه ، لتستقبله لكمة (أدهم) فى فكه ، مع صوت ساخر يقول :
ـ أو نقلب الموازين رأسًا على عقب .
تفجّرت الدماء من فم الزعيم وأنفه ، ولكنه طوّح بخنجره ثانية ، فى محاولة لإصابة (أدهم) ، وهو يقول فى حدة :
ـ لو انقلبت ستنقلب على رأسك أيها المصرى .
أمسك (أدهم) معصمه فى قوة ، قائلاً :
ـ ربما يحدث هذا .
ثم لوى معصمه ، وأجبره على إفلات الخنجر ، مضيفًا :
ـ لو بقى رأسك فى موضعه .

وهوى على فك الرجل بضربتين متعاقبتين سريعتين ، مستطردًا :
ـ وهذا ما أشكّ فى حدوثه .
كان هذا أكثر مما يمكن أن يحتمله الزعيم ، فسقط رأسه أرضًا فاقد الوعى ، ونهض (أدهم) فى بطء ، ينفض الثلج عن معطفه ، وتحسّس علبة الأسطوانة المدمجة فى جيبه ، قبل أن يغمغم :
ـ حمدًا لله .. ما زالت الأسطوانة سليمة .
باغته صوت صارم ، يقول بالروسية :
ـ عظيم .. لأننا سنحصل عليها الآن يا سيّد (أدهم).
اختطف (أدهم) مدفع الزعيم ، وتراجع بحركة رشيقة ، وهو يستدير لمواجهة (سيرجى كوربوف) ، و...
وفجأة ، تجمّد المشهد كله أمام عينيه ..
لقد كان يواجه (كوربوف) بالفعل ..
ولكن ليس منفردًا ..
كان بصحبته (إيفان) و (أنستازيا) ، وثلاثتهم يحملون مسدساتهم الآلية ..
ولكن ليس هذا ما جمّد المشهد أمام عينى (أدهم) ، وإنما كان هذا بسبب الشخص الرابع ، الذى تصوّب

(أنستازيا) مسدسها إلى رأسه ..

(جيهان) .. زميلته الجديدة (جيهان فريد) ..

* * *

انعقد حاجبا (أدهم) فى توتر شديد ، وهو يصوب مدفعه إلى الروس الثلاثة ، الذين يصوبون مسدساتهم إليه بدورهم ، فيما عدا (أنستازيا) ، التى ألصقت فوهة مسدسها برأس (جيهان) ، وهى تقول فى سخرية جذلة :

ـ هيا .. اضغط زناد مدفعك ، حتى أنسف رأسها الجميل أمام عينيك .. صدقنى ، سيمتعنى هذا المشهد الجميل بشدة .

غمغمت (جيهان) ساخرة :

ـ ألم أقل لك : إنك رقيقة المشاعر ؟

أما (أدهم) ، فقال فى صرامة :

ـ مسّى شعرة واحدة من رأسها ، وسأنسف أنا رأسك الجميل قبل أن تدركى حتى أننى أصوب مدفعى إليه .

وعلى الرغم من موقفها ، ومن يأسها من الظفر بقلبه ، وجدت (جيهان) قلبها يخفق فى قوة ، وتهدّج صوتها ، وهى تقول بالعربية :

ـ وتنكر أنك تحبنى ؟!

ضاعت الكلمة الأخيرة من عبارتها ، مع صوت (كوربوف) الصارم ، وهو يقول :

ـ الأسطوانة يا مستر (أدهم) .. الأسطوانة حتى لا ننسف رأس زميلتك .

هزّ (أدهم) رأسه نفيًا فى حزم ، قائلاً :

ـ حتى ولو نسفت رأسى شخصيًا يا (سيرجى) .. لن تحصل على الأسطوانة .

قالت (أنستازيا) ساخرة :

ـ عجبًا .. أين محاضرتك الطويلة عن إطلاق النار فور رؤيته ، وعدم منحه مهلة للتفكير .

انعقد حاجبا (كوربوف) فى شدة ، وهو يقول :

ـ ما زلت عند رأيى أيتها الغبية ، ولكننا نجهل أين يخفى نسخة الأسطوانة ، وربما أصابتها رصاصاتنا .

وضع (أدهم) يده فى جيبه ، قائلاً :

ـ لا تقلق نفسك بهذا الأمر يا عزيزى (سيرجى) .. الأسطوانة فى يدى بالفعل ، وأعتقد أنه ستكون لدى الفرصة لتحطيمها ، حتى ولو أطلقتم رصاصاتكم كلها علىّ .

قال (كوربوف) فى صرامة :

ـ ربما لا نطلق عليك رصاصة واحدة يا (أدهم) ،

ولكننى أعدك أن أقتل زميلتك بنفسى ، لو لم تعطنى الأسطوانة الآن .

كان (أدهم) يدرك جيدًا مع من يتعامل هذه المرة ..

ويدرك أن (سيرجى كوربوف) ليس ممن يقولون ما لا يفعلون ..

وما دام يؤكد أنه سيقتل (جيهان) ، ما لم يحصل على الأسطوانة ، فهو سيفعل حتمًا ، ولن يتراجع عن قوله قط ..

وهذا يعنى أن الاشتباك صار حتميًا ..

فمن المستحيل أن يعطيه (أدهم) نسخة الأسطوانة ، بعد كل ما بذله من جهد للحصول عليها ، حتى ينقذ وطنه من خطر الهجوم الشيوعى الشامل ..

ولكنه يجهل ما يمكن أن يؤدى إليه الاشتباك ..

صحيح أنه يجيد التصويب وإطلاق النار فى سرعة مدهشة ..

ولكن (سيرجى كوربوف) يمتلك المقدرة نفسها ..

ثم إن سبّابة (أنستازيا) متحفزة ، وبشدة ، لإطلاق النار على رأس (جيهان) ..

ومن المؤكد أن المشهد سيسعدها بحق ..

الأمر الأكثر خطورة ، هو أن هناك احتمالاً كبيرًا أن يلقى هو نفسه مصرعه ..

وهذا لا يخيفه على المستوى الشخصى ..

ولكنه يفزعه ، على المستوى الوطنى ..

فلو أنه لقى مصرعه ، سيستعيد الروس أسطوانتهم ، و ...

ولكن مهلاً ..

ما الذى يخسره الروس ، لو تحطمت هذه الأسطوانة ؟!

إنهم يسعون لمنع انتشار خطتهم ، وليس للحصول عليها ؛ فهم يمتلكون أصلها بالفعل ..

والعجيب أن الفريق الروسى لم ينتبه إلى هذا ..

اللّه (سبحانه وتعالى) أعماهم عن رؤية هذه الحقيقة البسيطة لهدف ما ..

ولكن هذا لن يدوم إلى الأبد حتمًا ..

بين دقيقة وأخرى ، سينتبه أحدهم إلى هذا ..

وعندئذ سيتغيّر الموقف كله ..

إنها فرصة نادرة ، فى عالم المخابرات ، لابد وأن يسعى لاستغلالها بأفضل وسيلة ممكنة ، وإلا خسرها تمامًا ..

وخسر معها حياته ..

ووطنه ..

وفى حزم ، قال (أدهم) :

ــ الواقع أن موقفك يدهشنى هذه المرة يا (سيرجى) ؛ فملفك لدينا يؤكد أنك قاس ، عنيف ، صارم ، لا يعرف قلبك الشفقة أو الرحمة ، بل إن بعضهم يدعى أن صدرك لا يحوى قلبًا ينبض ، ولكنك فى الوقت نفسه رجل مخابرات شريف ، تبذل قصارى جهدك دومًا ، ولا تتردد فى بذل حياتك نفسها ، لو اقتضى الأمر ، فى سبيل وطنك ، فماذا أصابك هذه المرة ؟

أجابه (كوربوف) فى صرامة :

ــ موقفى لم يتغير أيها المصرى ، فما زلت مستعدًا لبذل حياتى فى سبيل وطني .

قال (أدهم) ، وهو يتطلع إلى عينيه مباشرة :

ــ ولكنك لا تعمل لحساب وطنك هذه المرة يا (كوربوف) ، وإنما لحساب (زورين) .

هتفت (أنستازيا) فى توتر :

ــ إنها محاولة خداع أخرى .

ولكن (كوربوف) تجاهلها تمامًا ، وهو يقول :

ــ وما الفارق ؟.. الجنرال (زورين) رئيسى المباشر ، وكلانا يعمل فى سبيل الوطن .

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، قائلا :

ــ هل تحاول خداع نفسك أم خداعى يا (كوربوف) .. كلانا يعلم أن هذه المهمة تتم لحساب (زورين) ، وضد مصلحة (روسيا) .

بدا الذعر على وجه (إيفان) ، قبل أن يهتف محتدًا :

ــ (أنستازيا) على حق .. إنها محاولة خداع أخرى .

ولكن (كوربوف) أشار له بالصمت ، وهو يسأل (أدهم) فى اهتمام :

ــ ما الذى تعنيه ؟

صاحت (أنستازيا) :

ــ هل ستستمع إليه ؟

ولكن (أدهم) أجاب بسرعة :

ــ أعنى أنك تعلم أن (زورين) أنشأ منظمة شيوعية سرية ، تستعد للقيام بانقلاب شامل عنيف ، لقلب نظام الحكم فى (روسيا) ، والانطلاق منها لاستعادة مجد زائف ، وعظمة لم يكن لها من وجود .. وهذه الأسطوانة ، التى تقاتل للحصول عليها ، تحوى قوائم بأسماء كل المشاركين فى المؤامرة ، ومواقع الأسلحة والأدوات المعدّة للقيام بالانقلاب ، وأن سعى (زورين) المستميت لاستعادة أسراره ، يعود إلى خوفه

من افتضاح أمره ، وفشل خطة انقلابه الغادر .

انعقد حاجبا (كوربوف) فى شدة ، وهو يستمع إلى هذا القول ..

إن حديث (أدهم) يحوّل كل الشكوك التى راودته ، منذ بدأ مهمته ، إلى واقع مخيف ، خشى دومًا الاعتراف به ..

واقع يعنى أنه انتقل ، دون أن يدرى ، من قائمة المحاربين فى سبيل الوطن ، إلى كشف الخونة والمارقين ..

واقع دفعته مشاعره كلها لاستنكاره ، وهو يقول :

- أنت كاذب .

ولكن عبارته لم تنجح حتى فى إقناعه هو ..

لقد أتت واهنة ، متخاذلة ، وكأنها اعتراف منه بتصديق كل كلمة نطق بها (أدهم) ، الذى استقبل الاتهام بابتسامة ساخرة ، وهو يقول :

- كاذب ؟!.. هل تحاول إقناعى بأنك لم تكن تعلم كل هذا أو تتوقّعه ؟!

هتف (إيفان) ، وهو يلوّح بمسدسه :

- اخرس أيها المصرى .. لا تحاول اتهامنا بالخيانة .. (زورين) رئيسنا ، ولن نسمح لمخلوق

واحد باتهامه بالخيانة والخسة .

قال (أدهم) فى سرعة :

- إذن فأنتم تصرّون على أن (زورين) يعمل لصالح الوطن .

أجابه (كوربوف) فى حدة :

- بالتأكيد .

ابتسم (أدهم) ، قائلا :

- عظيم .. فى هذه الحالة ستقبلون اقتراحى ببساطة .

بدا التوتر على (أنستازيا) ، وهى تقول فى حدة :

- حذار أن تستمعا إليه .. إنه يتحايل علينا ، لينجو من المأزق الذى وضعناه فيه .

أشار (أدهم) بيده ، قائلا :

- لا مجال للخداع والتحايل هنا .. كل ما أقترحه هو أن نغادر هذا المكان بأقصى سرعة ، قبل وصول رجال الشرطة ، وتحتفظون أنتم بزميلتى كرهينة ، حتى نرسل نسخة من الأسطوانة إلى أعلى سلطة فى (روسيا) .

والتقى حاجباه ، وهو يضيف فى حزم :

- إلى الرئيس (بوريس يلتسن) مباشرة .

ازداد انعقاد حاجبى (أنستازيا) ، وبدا عليها التوتر الشديد ، فى حين نقل (إيفان) عينيه من وجه (أدهم)

إلى وجه (كوربوف) ، وغمغمت (جيهان) بالعربية ، ووجهها يحمل ابتسامة إعجاب واضحة :

ـ يا لك من عبقرى !

أما (كوربوف) ، فقد ظلّ يحدّق فى وجه (أدهم) بنظرة صارمة ، قبل أن يقول فى بطء :

ـ ومن أدرانى أنها ليست بالفعل محاولة خداع أخرى ؟

اعتدل (أدهم) ، وهو يقول فى حزم :

ـ أقسم بشرفى على أنها ليست كذلك .

صاحت (أنستازيا) :

ـ لا قيمة لمثل هذا القسم فى عالمنا يا رجل .

ولكن (كوربوف) أشار إليها بالصمت ، وقال فى حزم :

ـ وماذا لو أكّد فخامة الرئيس أنه يعرف كل ما جاء بالأسطوانة ؟

هزّ (أدهم) كتفيه ، وقال :

ـ ستظلّ زميلتى فى قبضتكم ، حتى يتأكّد العكس .

صمت (كوربوف) بضع لحظات ، ثم أومأ برأسه ، قائلاً :

ـ اقتراح مقبول .

صرخت (أنستازيا) فى غضب :

ـ ولكنه غير قابل للتنفيذ يا (كوربوف) .

قالتها ، وهى تجذب (جيهان) فى عنف ، وتتراجع خطوتين ، ثم تصوّب مسدسها إلى آخر شخص يتوقع الجميع أن تصوّبه إليه ..

إلى رئيسها ..

(سيرجى كوربوف) .

* * *



١٢ - الخائنة ..

« خمس ساعات ، ونصل إلى مرحلة اللاعودة .. »

حملت شاشة الكمبيوتر هذه العبارة ، ففرك (زورين) كفيه فى توتر ، وغمغم وهو يراقب عقارب ساعته فى توتر :

ـ خمس ساعات .. ساعة الصفر تقترب يا (بوريس) .

أجابه (بوريس) فى حماس :

ـ كل شىء يسير على ما يرام يا سيِّدى ، وسيتمّ كل شىء ، قبل أن يرسل هؤلاء الأغبياء طائرتهم .

أشار (زورين) بسبّابته ، قائلاً :

ـ أريد منك أن تنسفها قبل هبوطها يا (بوريس) .. تعاملوا معها كما لو كانت طائرة معادية ، تحاول التسلُّل إلى مطارنا الحربى .

ابتسم (بوريس) ، قائلاً :

ـ اطمئن يا سيِّدى .. سنحوِّلهم إلى فتات ، قبل حتى أن يدركوا ما أصابهم . إن كل شىء يسير على ما يرام ، وما هى إلا بضع ساعات ، حتى نستعيد مجدنا القديم .

ثم انعقد حاجباه ، قبل أن يستطرد :

ـ ولكن هناك أمر واحد يقلقنى .

سأله (زورين) فى اهتمام :

ـ وما هو ؟

أجابه متوترًا :

ـ الرجل الذى يرأس فريقنا فى (جنيف) .. (سيرجى كوربوف) .. إنه ليس أحد رجالنا ، بل ينتمى قلبًا وقالبًا للشرعية الحالية ، على الرغم من أنه يبغض النظم الرأسمالية مثلنا .. إننى أخشى أن يفسد الأمر كله .

ابتسم (زورين) ، قائلاً :

ـ لا تقلق يا رجل .. (سيرجى) سيقاتل بكل قوته ؛ لأنه يتصوَّر أنه يعمل لحساب هذه الشرعية ، التى تتحدَّث عنها ، وعندما ننتهى من مهمتنا ، سنكتسب نحن الشرعية الجديدة ، وسيواصل العمل معنا دون اعتراض .

سأله (بوريس) فى اهتمام :

ـ ولماذا وضعته على رأس الفريق ، ما دمنا لا نضمن ولاءه لنا ، تحت أية مقاييس ؟

أجابه (زورين) فى حزم :

ـ لأنه الرجل المثالى للقيام بمثل هذا العمل .. إنه حازم ، صارم ، قاس ، ومخلص فى عمله بشدة ، ثم

إنه يطيع الأوامر طاعة عمياء ، ولن يحاول معرفة فحوى الأسطوانة ، التى يقاتل للحصول عليها .

قال (بوريس) فى قلق :

ـ وماذا لو كشف الأمر ، قبل أن تنتهى العملية ؟

أجابه (زورين) فى هدوء :

ـ لن يفعل .

قال (بوريس) فى إلحاح :

ـ ربما قادته المصادفة إلى هذا .

صمت (زورين) لحظات ، قبل أن يقول :

ـ فى هذه الحالة ، ستتم إزاحته عن الطريق ، وتواصل عميلتنا المهمة لحسابنا .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة واثقة ، وهو يضيف :

ـ عميلتنا (أنستازيا) .

قالها ، وعاد يراقب عقارب الساعة فى اهتمام ، و ...

وقلق ..

* * *

تطلّع (كوربوف) إلى (أنستازيا) ، فى مزيج من الدهشة والغضب ، وهو يقول فى صرامة :

ـ هل أصابك خلل يا (أنستازيا) ؟!.. إلى من تصوّبين مسدسك ؟

أجابته فى عصبية :

ـ إليك أيها الغبى .

صاح فى غضب :

ـ كيف تجرؤين ..

قاطعته بصيحة هادرة :

ـ اخرس ..

ثما تابعت فى شراسة عصبية عنيفة :

ـ لقد احتملت سخافاتك طويلاً ، فى انتظار هذه اللحظة ، التى تنكشف فيها الأمور ، وأنتقل مباشرة إلى خطة الطوارئ .

انعقد حاجباه أكثر ، وهو يقول :

ـ أية أمور ؟

أجابت فى حدة :

ـ غباؤك أيها العبقرى .. كنت أنتظر اللحظة التى تدرك فيها أنك كنت مجرّد مطية ، استخدمها زعيمنا الرفيق (زورين) ، لتحقيق مآربه ، حتى يستعيد مجدنا القديم .. اللحظة التى أواجهك فيها بسخافاتك ، وأخبرك أنك تحوّلت ، دون أن تدرى إلى مقاتل فى صفوف منظمتنا ، وسلاحًا فى إعصارنا الأحمر القادم ، ثم أزيحك عن الطريق ، وأتولّى قيادة العملية .

اتسعت عينا (إيفان) فى ذهول ، وهو يهتف :
ـ أيتها الخائنة !.. إذن فقد كنا نقاتل من أجل .. من أجل ..
وبدلًا من أن يتمّ عبارته ، انقضّ عليها صارخًا :
ـ أيتها الخائنة الحقيرة .
أطلقت (أنستازيا) النار على رأسه مباشرة ، قبل أن تدير فوهة مسدسها إلى (كوربوف) ، صارخة ، دون أن تلتفت إلى سقوط زميلها صريعًا :
ـ إلى جحيم الأغبياء يا (كوربوف) .
تملّصت منها (جيهان) فجأة ، وقفزت تركل المسدس من يدها ، هاتفة :
ـ لماذا يتجاهلنى الجميع ، .. أنا هنا .
صرخت (أنستازيا) فى غضب :
ـ أيتها الحقيرة .
وقبل أن تنقضّ على (جيهان) ، أطلق (كوربوف) رصاصته ..
وشهقت (أنستازيا) شهقة قوية ، واتسعت عيناها فى ألم وارتياع ، وتفجّرت الدماء من ثقب صغير فى موضع قلبها ، و (كوربوف) يقول فى برود :
ـ إلى جحيم الخونة يا (أنستازيا) .

ترنّحت الروسية لحظة ، وهى تلوّح بسبّابتها ، ثم هوت جثة هامدة ، عند قدمى (كوربوف) ..
ولثانية أو يزيد ، ران على المكان صمت مطبق ، لم تقطعه سوى قرقعة النيران المتأجّجة فى الحطام ..
ثم ارتفع من بعيد دوى أبواق سيارات الشرطة ، وهى تقترب ، فأدار (كوربوف) عينيه إلى (أدهم) ، قائلًا فى حزم :
ـ أما زال اقتراحك ساريًا يا سيّد (أدهم) ؟
أجابه (أدهم) فى هدوء ، وهو يخفض فوهة مدفعه :
ـ بكل تأكيد يا (سيرجى) .
هتفت (جيهان) فى سخرية :
ـ عظيم .. كنت أتمنى أن أصفق فى حرارة ، لهذا المشهد الرائع ، ولكننى أعتقد أنه من الأفضل أن نبتعد عن هنا بأقصى سرعة ، قبل أن تصل سيارات الشرطة .
أشار (كوربوف) بسبّابته ، قائلًا :
ـ أوافق على هذا الاقتراح أيضًا .
وفى نفس اللحظة التى وصل فيها رجال الشرطة والإطفاء والإسعاف إلى الفيلا ، كانت سيارة (كوربوف) تنطلق فى الطريق المضاد ، وبصحبته (أدهم) و (جيهان) ، فى طريقهم لوضع اللمسة الأخيرة فى لوحة كبيرة ..

لوحة عقارب الساعة ..

ساعة الصفر ..

* * *

« ولكن ، ماذا أصاب (زورين) ؟!... »

نطقت (جيهان) هذه العبارة فى فضول ، وهى تقف إلى جوار (أدهم) ، فى منطقة أكواخ الصيد ، المتاخمة للجانب الآخر للبحيرة ، فى التاسعة من صباح اليوم التالى ..

كان كل منهما قد حصل على قدر كاف من النوم والراحة ، وارتدى أفضل ما لديه ، فبدا (أدهم) أنيقًا وسيمًا ، فى معطف مطر فاخر ، وقفازين من الجلد الطبيعى ، فى حين تألق جمالها هى فى معطف من الفراء ، وغطاء رأس من النوع نفسه ، لم يخف شعرها الأشقر الطويل ، الذى انسدل على كتفيها كشلال من الذهب ، وأجابها (أدهم) فى هدوء :

ـ لم تصلنى معلومات بشأنه بعد ، ولكن الاحتمال الأكبر أن الرئيس الروسى قد أصدر أمرًا باعتقاله ، فور إطلاعه على تفاصيل الخطة ، بل الغالب على الظن أن حملة واسعة من الاعتقالات قد بدأت فى (موسكو) ، اعتبارًا من التاسعة والنصف من مساء أمس ، بتوقيت (جينيف) .

سألته فى اهتمام :

ـ هل تعتقد أنهم سيطروا على الموقف هناك ؟

ابتسم ، قائلا :

ـ بالتأكيد ، وإلا لكانت أنباء الانقلاب تحتل صدر نشرات الأخبار فى كل صحف ومحطات العالم الآن .

هزت رأسها ، مغمغمة :

ـ أخشى أن يكون (زورين) قد نجح فى الفرار ، أو ..

انتبهت فجأة إلى أنه لم ينتبه لقولها ، مع متابعته الواضحة لسير المزاد القائم ، لبيع واحد من أكواخ الصيد ، فسألته مستنكرة :

ـ قل لى بالله عليك : ما الذى نفعله هنا ، فى مثل هذا الوقت ؟

وبدلاً من أن يجيب سؤالها ، فوجئت به يرفع يده ، قائلاً بالفرنسية :

ـ مائتا ألف دولار .

التفتت إليه الأنظار فى دهشة ؛ فلم تكن قيمة الكوخ فى المزاد قد تجاوزت المائة ألف دولار بعد ، وهتفت (جيهان) :

ـ مائتا ألف دولار ؟!.. هل تشترك فى المزاد بالفعل ؟

لم يجب سؤالها ، منشغلاً بذلك الرجل ، الذى أضاف إلى ما عرضه عشرة آلاف دولار أخرى ، فقال فى حزم :

- ربع مليون دولار .

اتسعت عيناها فى دهشة بالغة ، وهى تهتف :

- هل ستبتاع كوخ الصيد هذا بالفعل ؟!

أجابها فى حزم :

- هل يراودك الشك فى هذا ؟

ومع آخر حروف عبارته ، أشار إليه مدير المزاد ، قائلاً :

- أهنئك يا سيّدى .. لقد حصلت عليه .

أخرج (أدهم) دفتر شيكاته ، وهو يتجه نحوه ، قائلاً :

- أشكرك .. أرجو أن تستخرج الأوراق اللازمة بأقصى سرعة .

وناول الرجل شيكًا بالمبلغ ، مستطردًا :

- باسم (دين جارفيلد) .

انتفض صاحب الكوخ الأصلى ، وهو يهتف فى دهشة :

- باسمى أنا ؟

التفت إليه (أدهم) مبتسمًا ، وهو يجيب :

- أعتقد أن هذا أقل ما يمكننى أن أفعله من أجلك يا مستر (جارفيلد) .. لقد أنقذت حياتى .. هل تذكر هذا ؟!(*) .

حدّق (جارفيلد) فى وجهه بدهشة ، وهو يقول :

- بالطبع أذكر هذا ، ولكن هل .. هل كان هذا يستحق الـ ... ال ...

انعقد لسانه ، ولم يستطع إكمال عبارته ، فابتسم (أدهم) ، وربّت على كتفه ، قائلاً :

- إلى اللقاء يا مستر (جارفيلد) .. لن أنسى موقفك النبيل قط .

قالها ، وانصرف فى هدوء ، تلاحقه كومة هائلة من نظرات الدهشة ، وخفق قلب (جيهان) فى شدة ، وهى تتأبط ذراعه ، وتتطلع إليه فى مزيج من الإعجاب والانبهار ، مغمغة فى صوت متهدّج :

- أنت رائع .

منحها ابتسامة هادئة ، وهو يجيب :

- أشكرك .

(*) راجع الجزء الأول .. (الإعصار الأحمر) .. المغامرة رقم (١٠٤) .

كانت تشعر بسعادة غامرة ، لأنها تسير إلى جواره ، متأبطة ذراعه ، فى نفس الوقت الذى يبكى فيه قلبها حزنا ، لأنه سيرحل عنها بعد قليل ..

إنها لم تحب فى حياتها كلها سواه ..

لم تشعر بالإعجاب والتقدير تجاه رجل ، بعد وفاة والدها ، كما تشعر بهما تجاهه ..

ولكن يا للخسارة !..

لقد حرمها القدر حبه ..

حرمها قلبه ، الذى حظيت به زميلتها ، على الرغم من أنها ترقد فى غيبوبة عميقة ، منذ فترة طويلة ..

« أريد الاطمئنان على (منى) .. »

نطقها بلهفة حقيقية ، انخلع لها قلبها ، فخفضت عينيها لتدارى حزنهما ، وإن لم تنجح فى إخفاء نبرته فى صوتها ، وهى تغمغم :

- بالتأكيد .

التقطت أذناه وعقله حزنها ، ولكنه تظاهر بالعكس ، واستقل معها سيارة رياضية صغيرة جديدة ، انطلقت بهما إلى ذلك المنزل الآمن الجديد ، فى قلب (جنيف) ، وهناك أجرى (أدهم) اتصاله بالمستشفى المركزى فى (نيويورك) ، وسمع رنين الهاتف على

الجانب الآخر ، فى حجرة مكتب شقيقه (أحمد) ، الذى انضمّ إلى طاقم المستشفى مؤخرًا ، ثم سمع صوتًا يقول بالإنجليزية :

- مكتب الدكتور (أحمد صبرى) .. من المتحدث ؟

أدهشه الصوت فى البداية ، ثم لم يلبث أن هتف :

- (قدرى) ؟! .. يا للمفاجأة !.. ماذا تفعل فى مكتب (أحمد) ؟

وقفز القلق إلى قلبه وصوته بغتة ، وهو يضيف :

- بل ماذا تفعل فى (أمريكا) .. لقد تركتك هناك ، فى (القاهرة) .

تحوّل قلقه فى لحظة واحدة ، إلى عاصفة من التوتر ، عندما هتف (قدرى) :

- آه .. (أدهم) .. رباه !.. (أدهم) .. أين أنت يا رجل ؟

ثم انفجر باكيًا فى حرارة ، انتزعت (أدهم) من مقعده ، وجعلته يهتف :

- ماذا حدث يا (قدرى) ؟.. ماذا حدث ؟.. كيف حال (منى) ؟.. أجب بالله عليك .

كان بكاء (قدرى) ونحيبه يمزقان قلبه ، ويملآنه رعبًا ولوعة ، وعشرات المخاوف والأفكار تملأ رأسه ،

وتعربد فيه مطلقة السراح .

ثم التقط شقيقه السماعة من (قدرى) ، قائلا :

- ألو .. (أدهم) .. كيف حالك يا أخى العزيز ؟

هتف به (أدهم) :

- كيف حال (منى) ؟

صمت الدكتور (أحمد) لحظة ، انفطر خلالها قلب (أدهم) ، ثم أجاب فى حزن واضح :

- الأخبار التى أحملها ليست سارة يا (أدهم) .

طعنت العبارة (أدهم) طعنة نجلاء ، فى أعمق أعماق قلبه ، وهو يغمغم فى ارتياع :

- (منى) .. هل .. هل ..

لم يقو على نطق الكلمة ، ولكن شقيقه أجاب فى حزن غامر :

- إنها تحتضر يا (أدهم) .

خُيِّل لـ (أدهم) أن صاعقة هائلة قد انتقلت عبر الأسلاك ، واخترقت أذنه بلا رحمة ، ثم انقضت على قلبه تمزقه تمزيقًا ، وهو يسقط فوق مقعده ، مرددًا :

- تحتضر ؟!

وانتفض قلب (جيهان) بين ضلوعها ، وهى تسمع الكلمة ..

ووجدت نفسها تنفجر فجأة باكية فى حرارة ..

ربما يتصور البعض أنها شعرت بالارتياح ، لأن غريمتها تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وتفسح لها مجالا واسعًا فى قلب الرجل الوحيد فى هذا العالم ، الذى منحته حبها وقلبها ..

ولكن هذا لم يكن صحيحا ..

لقد انفطر قلبها فى حزن حقيقي على زميلتها القديمة ..

على المرأة الوحيدة ، التى نجحت فى اكتساب قلب (أدهم صبرى) ..

وانفطر قلبها حزنًا على حزنه ، الذى لم تر مثله فى حياتها كلها ، والذى انحفر فى كل خلية من خلاياه ، حتى لقد تمنت لو تلقى مصرعها تحت قدميه ، لعله يمنحها قطرة من هذا الحزن الجارف ..

حزن العاشق لما أصاب معشوقته ..

وبينما انهمرت دموعها كالسيل ، كان الدكتور (أحمد صبرى) يقول لشقيقه عبر الهاتف :

- معدلاتها الحيوية انخفضت إلى أدنى مستوى ، ولم تعد أجهزة العناية الفائقة قادرة على الإبقاء عليها ، فتم

نقلها إلى الرئة الآلية(*) ، كمحاولة أخيرة لإنقاذها ، إلا أن المختصين هناك يؤكدون أن هذا الإجراء لم يأت بالنتائج المرجوة ، وأن حالتها فى تدهور مستمر ، وما هى إلا مسألة وقت فحسب ، و ...

لم يستطع بدوره نطق الكلمة ، ولكن (أدهم) أجاب فى حزم عجيب :

- أنا فى طريقى إليك .

وأنهى الاتصال ، ثم رفع سماعة الهاتف مرة أخرى ، وطلب رقمًا داخليًا جديدًا ، ليقول فى صرامة أدهشت (جيهان) :

- أريد استئجار طائرة خاصة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، بحيث تقلع إلى هناك فورًا ، أو بأسرع وقت ممكن .

وجدت نفسها تندفع قائلة :

- سأصحبك إلى هناك .

لم تدر حتى لماذا فعلت هذا ..

(*) الرئة الآلية : جهاز خاص ، أشبه باسطوانة هائلة ، يوضع داخله المصابون بفشل الدورة التنفسية ، ليقوم مقام الرئة الحقيقية ، من حيث التنفس ، وتبادل الأكسجين وثانى أكسيد الكربون فى الدم ، يطلق عليه أيضًا اسم الرئة الحديدية

ولكنها أرادت أن تفعله حقًا ..

وهو لم يعترض ..

وبعد أقل من ساعة ، وداخل الطائرة التى تحملهما إلى (أمريكا) ، جلس (أدهم) صامتًا شاردًا ، لا يتبادل معها كلمة واحدة ..

كانت مشاعره كلها تتجه نحو نقطة واحدة ..

(منى) ..

استعاد كل لحظة عملا فيها معًا ..

كل المخاطر التى واجهاها ..

كل لحظة حب ..

لم يكن من السهل عليه أبدًا أن يتقبّل فكرة رحيلها ..

لم يكن من الهيّن على قلبه أن يحتمل فراقها ..

ومرة أخرى ، شعر أنه فى سباق مع عقارب الساعة ..

فى سباق مع الموت ، الذى يقترب منها بسرعة ..

ولم يكن لديه من أمل ، سوى أن يقضى معها لحظات أخيرة ، قبل أن ترحل ..

أن يلتقط يدها الرقيقة ، ويحتضنها بدفء حبه ، وهو يبثها إياه هامسًا ..

حتى ولو لم يعد بمقدورها أن تسمعه ..

وفى غمرة ذكرياته وحزنه وانفعاله ..
وربما لأول مرة فى حياته كلها ..
انحدرت من عين (رجل المستحيل) دمعة ..
دمعةَ تحمل كل الحزن ..
وكل الحب .

* * *

[تمت بحمد الله]